في الحياة الاجتماعية

(نظرات قرآنية)

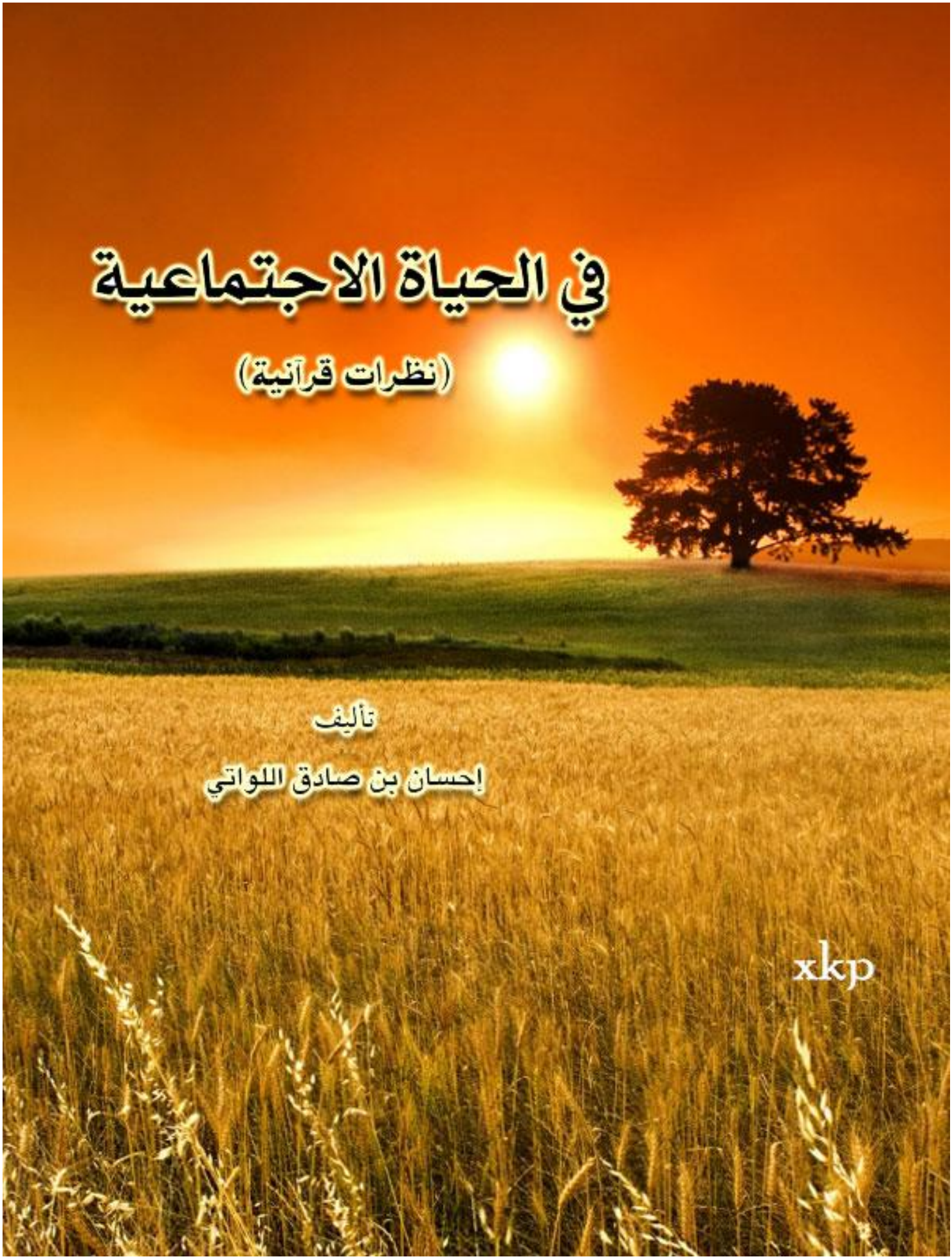

في الحياة الاجتماعية
(نظرات قرآنية)
تأليف
إحسان بن صادق اللواتي
xkp

دار المرتضى

طباعة، نشر، توزيع
بيروت لبنان
تلفاكس: ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢
مكتبة: ٠٠٩٦١١٢٧٩٥٥٧
خليوي: ٠٠٩٦١٧٠٩٥٠٤١٢
E-mail:mortada14@hotmail.com

يُطلب هذا الكتاب وبقية منشورات
الدار من مكتبة القائم
العراق - الكاظمية - باب المراد - فضوة الشيخ
خلف عمارة النواب
تلفون: ٠٧٩٠١٩٩٢٧٢٠ - ٠٧٧٠٧١١٨٤٣٣
e-mail: kaess81@gmail.com

DAR AL-MORTADA

Printing - publishing - Distributing
Lebanon - Beirut
Tel-Fax: 009611840392
Mobile: 0096170950412
E-mail:mortada14@hotmail.com
Printed In Lebanon

الطبعة الأولى
١٤٣٩ هجرية
٢٠١٨ ميلادية

في الحياة الاجتماعية

(نظرات قرآنية)

تأليف

إحسان بن صادق اللواتي

دار المرتضى

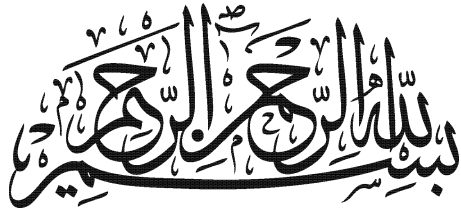
بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي علا بحوله، ودنا بطَوْله، مانح كل غنيمة وفضل، وكاشف كل عظيمة وأزْل، أحمده على عواطف كرمه وسوابغ نعمه، وأؤمن به أولًا باديًا، وأستهديه قريبًا هاديًا، وأستعينه قادرًا قاهرًا، وأتوكل عليه كافيًا ناصرًا. وأفضل الصلاة وأزكى التسليم على سيد رسله وخاتم أنبيائه وأشرف خلقه محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه المنتجبين.

وبعد، فلا يرتاب أحد في أنّ القرآن الكريم قد أولى الحياةَ الاجتماعية قدرًا كبيرًا من اهتمامه، وخصّص لها آيات كثيرة منه، تناول فيها جوانب مختلفة وآثار أبعادًا متنوعة مما يرتبط بغرضه الأساس الذي أُنزل لأجله، وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور وهدايتهم للّتي هي أقوم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ

بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١]. وليس ثمة من شك في أنّ هذا الإخراج من الظلمات إلى النور لا بد له أن يتناول المجال الاجتماعي، في ضمن ما يتناوله؛ لكي يتحقق الهدف المنشود في أبهى صوره وأجلى تجلياته.

إنّ هذا الكتاب يشتمل على مجموعة من المحاضرات المرتبطة بالتناول القرآني لجوانب متنوعة من الأبعاد والقضايا والهموم الاجتماعية، وقد كنتُ وُفّقت لإلقائها في سنوات خلت في مسجد الرسول الأعظم ﷺ بمدينة مطرح في سلطنة عمان، ثم اقترح عليّ بعض الإخوان أن أدوّنها وأخرجها في كتاب مستقل، فاستجبت لما أشاروا به عليّ، عسى أن يكون في ذلك تعميم للنفع ومزيد من نشر نور القرآن في الآفاق.

أسأل الله - جلّ شأنه - أن يتقبل مني هذه البضاعة المزجاة بقبول حسن، وأن يجعلها وسيلةً إلى ثوابه ورضوانه، فإنه أكرم الأكرمين.

إحسان بن صادق بن محمد اللواتي
غرة ذي الحجة ١٤٣٩هـ
مسقط، سلطنة عمان
ehsansadiq@hotmail.com

(١) سورة الحديد، الآية: ٩.

١ - قول الأحسن

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[١].

في الآية الشريفة خطاب موجّه إلى خاتم الرسل محمد ﷺ يطالبه بأن يخاطب أناسًا وصفتهم الآية بـ ﴿لِّعِبَادِى﴾، ويطالبهم بأن ﴿يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ﴾، فمن هؤلاء العباد المقصودون؟ وما معنى قول التي هي أحسن؟

هنا قولان عند المفسرين:

فأما القول الأول فيذهب أصحابه إلى كون المقصودين هنا هم المشركون، فهم وإن كانوا منحرفين عن الحق، لكن البيان القرآني يستهدف تحريك عواطفهم الإنسانية فيصفهم

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٣.

بهذا الوصف الجذاب المحبب ﴿لِّعِبَادِى﴾، ويدعوهم إلى قول الأحسن، والمقصود به كلمة التوحيد وترك الشرك.

وأما القول الآخر فيختار مناصروه أنّ المقصودين هم المؤمنون، والإضافة إلى ياء المتكلم الراجعة إلى رب العزة ﴿لِّعِبَادِى﴾ هي إضافة تشريفية مثل التي في: بيت الله، وشهر الله. وتريد الآية، بناءً على هذا، أن تعلّم المؤمنين طريقة النقاش مع الكافرين والمنحرفين، فلا بد أن تكون بـ ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

هذا القول هو الأشهر عند المفسرين، وهو الأرجح؛ لأنه لم يُعهد في أسلوب القرآن الكريم أن يستعمل هذا الوصف الشريف ﴿لِّعِبَادِى﴾ في الحديث عن المشركين، فهو وصف أشبه أن يكون للمؤمنين وألصق بشأنهم. ثم إنّ هذا القول ينسجم مع الأخبار الواردة في سبب النزول، من أنّ المشركين كانوا يضيّقون على المسلمين الأوائل في مكة، فكان بعضهم يأتي رسولَ الله ﷺ يستأذنه في قتالهم، ويجيبه ﷺ بأنّه لم يؤذن بقتال، وإنما تنبغي مجادلتهم بالتي هي أحسن[1]، فمهما

(١) راجع: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ٩: ٢٢ - ٢٣.

أخطؤوا في حق النبي ﷺ والمسلمين قولًا وفعلًا، فإنّ هذا كله ينبغي ألّا يجعل المسلمين يتصرفون بمنطق ردود الأفعال فيردّون السباب بسباب والأذى بمثله، بل عليهم أن يحفظوا ما تقتضيه التقوى، فلا يقولوا إلا التي هي أحسن، ولا يتصرفوا إلا بما يرضي ربهم.

ولا تكتفي الآية بخطابها هذا حتى تعلّله وتبيّن ما وراءه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، «النزغ» في اللغة هو «دخول في أمر لإفساده»[١]، فالشيطان يتحيّن هذه الفرص التي تتيح له المجال للتسرب في الحياة الاجتماعية ومحاولة إفساد العلاقات بين الناس. وإذا لم يتحكم المؤمنون في كلامهم الذي يصدر عنهم فإنهم سيعطون للشيطان السطوة التامة والقيادة الفعلية للحركة الاجتماعية والارتباطات فيما بين أبناء المجتمع، بل قد يحاول الشيطان «النفوذ إلى قلوب المؤمنين لإفسادها»[٢]. ومن الجليّ أنّ هذا ليست فيه أية مصلحة لأي مجتمع، وأنّى للشيطان أن يسعى لمصلحة الناس؟ فهو لا يحمل لهم إلا العداوة البيّنة ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾.

هذا، وفي الآية الكريمة دروس مهمة:

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، مادة «نزغ».
(٢) الأمثل ٩: ٢٢.

الدرس الأول:

يريد القرآن الكريم أن نجعل منطلقنا في حوارنا مع الآخرين هو منطلق العبودية لربّنا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ. . .﴾، فمن العبودية ننطلق، وإليها نستند في كل ما نقوله لغيرنا، فلا مجال للتحدث اعتمادًا على المزاج الشخصي والعواطف الذاتية والميول، وليس مقبولًا أن يكون كلام المسلم منطلقًا من دافع ردّة الفعل فقط، دونما تحكيم للعقل والمنطق، حتى عندما يكون الوضع حرجًا ومتشنجًا، كالوضع الحساس الحرج الذي نزلت فيه الآية الكريمة، حينما كان الكافرون يؤذون النبي ﷺ والمسلمين بأفعالهم وأقوالهم ويستثيرون نقمتهم وغضبهم، فحتى في أوضاع بالغةٍ درجةً عالية من التوتر كهذه لم يأذن القرآن للمسلمين في أن يستعملوا من الكلام ما أرادوا، بل ذكّرهم بعبوديتهم لربهم، وأراد منهم أن يلتزموا بما تقتضيه، وهي تقتضي قطعًا أن يتدبروا عاقبة كلامهم. وهذا ما تحدث عنه رسول الله ﷺ إذ قال: «إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإنّ الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله بها سخطه

إلى يوم يلقاه»[١]. وأشار أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى القضية ذاتها حين قال: «كلامك محفوظ عليك، مخلّد في صحيفتك، فاجعله فيما يزلفك»[٢].

الدرس الثاني:

ليس يكفي - في المنظور القرآني - أن نسعى إلى جعل كلامنا مع غيرنا حَسَنًا، فلا بد من البحث عن ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، أي أن نرفع من مستوى طموحاتنا في هذا المجال، فلا نقنع بالحسن وحده، بل نحاول الوصول إلى الأحسن. وهذا البيان القرآني يجأر بالأهمية التي يوليها الإسلام هذه القضية، وبمدى حرصه الشديد على أن يسلك المسلمون سبيل الدقة في انتقاء كلامهم مع الآخرين. روي أنّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام سُئل: «أي شيء مما خلق الله أحسن؟ فقال: الكلام، فقيل: أي شيء مما خلق الله أقبح؟ قال: الكلام، ثم قال: بالكلام ابيضّت الوجوه، وبالكلام اسودّت الوجوه»[٣].

(١) ميزان الحكمة، الشيخ محمدي الري شهري، ٨: ٤٣٥.
(٢) نفسه ٨: ٤٤٢.
(٣) ميزان الحكمة ٨: ٤٣٥.

الدرس الثالث:

«أحسن» جاء هنا وصفًا مطلقًا، فهو شامل للمضمون والصياغة كليهما، وهذان جانبان يستحقان منّا مزيدًا من الاهتمام والعناية:

فأما المضمون فالإسلام يهتم به اهتمامًا عظيمًا، إذ لا يصح أن يكون كلامنا حاويًا مضامينَ مستهجنة، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إياك وما يُستهجن من الكلام، فإنه يحبس عليك اللئام، وينفّر عنك الكرام»[١]، وقال أيضًا: «من ساء كلامه كثر ملامه»[٢].

وليس من المقبول أيضًا من المسلم أن يشغل نفسه وغيره بفضول الكلام الذي لا يعنيه، فقد مرّ أمير المؤمنين علي عليه السلام برجل يتكلم بفضول الكلام، فوقف عليه ثم قال: «يا هذا، إنك تملي على حافظيك كتابًا إلى ربك، فتكلم بما يعنيك، ودع ما لا يعنيك»[٣]، وقال الإمام الحسين بن علي عليه السلام يومًا لابن عباس: «لا تتكلمنّ بما لا يعنيك فإني

(١) ميزان الحكمة ٨: ٤٣٦.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه.

أخاف عليك الوزر، ولا تتكلمنّ فيما يعنيك حتى ترى للكلام موضعًا»[١]. والحقّ أنّ عليًّا والحسين عليهما السلام إنما يطبقان في هذا الموضع - مثلما في كل موضع - المنهج الذي اختطّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال: «من حسن إسلام المرء تركه الكلام فيما لا يعنيه»[٢].

وأما الصياغة (أو الأسلوب) فهي لا تقلّ أهمية عن المضمون، بل هي قرينته الدائمة وشريكته الأبدية في الأثر الذي يتركه كلامنا في الآخرين، فقد يكون مضمون كلامنا حسنًا جميلًا، لكن الأسلوب الرديء في بيانه قد يؤدي بالآخرين إلى رفضه أو إلى عدم استحسانه كما ينبغي، في أقل تقدير. وفي المقابل، قد يكون المضمون سيئًا رديئًا، إلا أنه إذا صُبّ في قالب جميل من أسلوب شائق بديع فقد يخفّ عنه قدر كبير من سوئه، ويراه الآخرون جميلًا، ويقع منهم موقع القبول والرضا.

إنّ الطريقة التي نخاطب بها الآخرين لها أكبر الأثر في موقفهم منّا وطريقة تعاملهم معنا؛ لذا نجد القرآن الكريم نبّه

(١) نفسه ٨: ٤٣٧.
(٢) ميزان الحكمة ٨: ٤٣٦.

على هذا الجانب غيرما مرة، منها مثلًا حين نقل الخطاب الإلهي المتوجه إلى موسى وهارون عليهما السلام، وهو الخطاب المطالب لهما بتليين القول لفرعون على الرغم من كل طغيانه: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[1]، ومن هذه المرات أيضًا ما خاطب به القرآن نبيّنا الخاتم محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم مبيّنًا الرحمة الإلهية التي كانت وراء لينه في الحديث مع قومه وعدم الغلظة والفظاظة معهم: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾[2].

ووردت في الأحاديث الشريفة أيضًا توجيهات وتنبيهات تتعلق بالجانب الأسلوبي وطرائق إيصال المعاني إلى المخاطبين لأجل تحقيق الأغراض المطلوبة من الكلام، فمن ذلك مثلًا ما ورد من النهي عن كثرة الكلام والثرثرة، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه ذكر من وصايا الخضر لموسى عليه السلام: «لا تكوننّ مكثارًا بالنطق مهذارًا، فإنّ كثرة النطق تشين

(١) سورة طه، الآيتان: ٤٣، ٤٤.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

العلماء، وتبدي مساوي السخفاء»[١]، وورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «إياك وكثرة الكلام؛ فإنه يكثر الزلل ويورث الملل»[٢].

ومن ذلك أيضًا ما يرتبط بتنظيم الكلام وتوضيحه بنحوٍ يجعله غير مملول ولا صعب الفهم، كقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أحسن الكلام ما لا تمجّه الآذان ولا يُتعب فهمه الأفهام»[٣]، وقوله عليه السلام: «أحسن الكلام ما زانه حسن النظام، وفهمه الخاص والعام»[٤]، وقوله أيضًا: «خير الكلام ما لا يملّ ولا يقلّ»[٥].

الدرس الأخير:

تنبّهنا الآية الشريفة على واحد من التجليات الكبرى لعداوة الشيطان للإنسان، وهو التجلي المتمثل في إفساده العلاقات والروابط الاجتماعية بين الناس بواسطة كلامهم،

(١) ميزان الحكمة ٨: ٤٣٩.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ٨: ٤٤٨.
(٤) نفسه.
(٥) نفسه.

فهو يتحيّن الفرص ويبحث عن الثغرات المناسبة التي يتمكن منها من الدخول والتسرب إلى قلوب الناس وعقولهم، مستغلًا كلمةً صدرت من هذا ليُغضب بها ذاك، ومستفيدًا من هفوة لسان غير مقصودة من طرفٍ ليزرع بها حقدًا في طرف آخر، وهكذا تصبح ألسنتنا أسلحة ومعاول يستغلها الشيطان - من حيث لا نعي ولا ننتبه - لخراب المجتمعات وتفكك عرى العلاقات الاجتماعية. وقد وردت في الروايات الشريفة إشارات إلى هذا الجانب، كما في قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «ربّ قولٍ أنفذ من صول»[١]، وقوله عليه السلام: «ربّ كلام كالحسام»[٢]، وأيضًا: «رب كلام أنفذ من سهام»[٣].

ولربما تكون للكلام أحيانًا آثار أخطر من هذا بكثير، فيؤدي إلى إراقة الدماء وسلب الأموال وانتهاك الحرمات، وفي هذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يعذّب الله اللسان بعذاب لا يعذّب به شيئًا من الجوارح، فيقول: أي ربّ، عذّبتني بعذاب لم تعذّب به شيئًا، فيقال له: خرجت منك كلمة

(١) ميزان الحكمة ٨: ٤٣٥.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه.

فبلغت مشارق الأرض ومغاربها، فسُفك بها الدم الحرام، وانتهب بها المال الحرام، وانتهك بها الفرج الحرام، وعزتي وجلالي لأعذبنك بعذاب لا أعذّب به شيئًا من جوارحك»[١]، وقال أيضًا: «إن كان في شيء شؤم ففي اللسان»[٢].

ولمّا كان هذا هكذا، تتابعت النصوص الشرعية الداعية إلى خزن اللسان وحفظه، فعن سيد البرية ﷺ أنه قال: «أمسك لسانك، فإنها صدقة تصدّق بها عن نفسك، ثم قال: ولا يعرف عبد حقيقة الإيمان حتى يخزن من لسانه»[٣]، وقال ﷺ أيضًا: «نجاة المؤمن في حفظ لسانه»[٤]. وروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «الكلام في وثاقك ما لم تتكلم به، فإذا تكلمت به صرتَ في وثاقه، فاخزن لسانك كما تخزن ذهبك ووِرِقك، فربّ كلمة سلبت نعمة»[٥].

وإذا كان المرء لا محالة متكلمًا، فإنّ عليه قبل التكلم أن يتفكر فيما يريد قوله ويزنه بوعي وحكمة، فلا يقوله إلا إذا كان

(١) أصول الكافي، الشيخ الكليني، منشورات الفجر، بيروت ٢: ٧٥.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ٢: ٧٤.
(٤) نفسه.
(٥) ميزان الحكمة ٨: ٤٤١- ٤٤٢.

فيه خير وصلاح، هكذا هو المؤمن مثلما وصفه نبيّنا الأعظم محمد ﷺ: «إنّ لسان المؤمن وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبّره بقلبه، ثم أمضاه بلسانه، وإنّ لسان المنافق أمام قلبه، فإذا همّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبّره بقلبه»[١]، ومثله ما في نهج البلاغة: «لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه»[٢].

نعم، ولو أنّ الآثار الوخيمة للّسان اقتصرت على هذه الحياة الدنيا إذًا لهان الأمر، لكنها آثار تسري إلى الآخرة أيضًا، فعن معاذ بن جبل قال: «كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: كفّ عليك هذا - وأشار بلسانه - قلت: يا نبي الله، وإنّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك، وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم؟»[٣].

---

(١) نفسه ٨: ٤٩٤.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة ٤٠ من قصار الحكم، ص ٤٧٦ (طبعة صبحي الصالح).

(٣) ميزان الحكمة ٨: ٤٩٨ - ٤٩٩.

٢ - الدفع بالأحسن

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

ذكر المفسرون مجموعة من الأقوال في مقام بيان المراد من ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾، أهمها:

١ - المراد الخصال الحسنة والخصال السيئة.

٢ - الحسنة يراد منها هنا الوسائل الحسنة للدعوة إلى الله تعالى، والسيئة هي الوسائل السيئة التي يستعملها محاربو تلك الدعوة.

٣ - المقصود من الحسنة هو التوحيد والإسلام، ومن السيئة الشرك والكفر.

---

(١) سورة فصّلت، الآية: ٣٤.

٤ - المعنيّ بالكلمة الأولى مطلق الأعمال الحسنة، وبالكلمة الأخرى مطلق الأعمال السيئة.

والحقّ أنّ ظاهر الآية الكريمة هو الإطلاق في كلتا الكلمتين، ومقتضى هذا الإطلاق هو انطباقهما على كل ما يصدق عليه أنه من «الحسنة» وكل ما يصدق عليه أنه من «السيئة». فلا مقتضي يدعو إلى حصر دلالتهما في دائرة محدودة دون غيرها. و«لا» في قوله تعالى ﴿وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ زائدة لتأكيد النفي، وعلى هذا فالآية الشريفة تبيّن عدم استواء الحسنة والسيئة في شأنيهما، فكل منهما شأنها الخاص؛ لذا فإنّ المسلم مطالب بما خاطب به القرآن النبيَ الأكرم محمدًا ﷺ من دفع إساءة الناس وأذاهم بالتي هي أحسن. وهذا السلوك القويم ستكون له، لا محالة، آثار إيجابية عظيمة في الحياة الاجتماعية والروابط بين الناس، إذ سيترك أثره في الطرف المقابل ويجعله يتعامل ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، وكلمة «وليّ» هنا هي بمعنى صديق، و«حميم» معناها في الأصل الماء الحار المغلي، وهي تُستعمل للدلالة على قوة العلاقة وصدقها.

وبعد، فثمة محطات في الآية ينبغي لنا التوقف عندها:

المحطة الأولى:

تريد الآية الكريمة منّا أن نستحضر في أذهاننا دومًا حقيقةَ عدم استواء الحسنة والسيئة، فليست حالتهما واحدة وليس شأنهما متفقًا، فالحسنة حسنة والسيئة سيئة ولا تجتمعان، والفارق بينهما عظيم في الآثار، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وجدتُ الحسنة نورًا في القلب، وزينًا في الوجه، وقوة في العمل، ووجدتُ الخطيئة سوادًا في القلب، ووهنًا في العمل، وشينًا في الوجه»[١].

هذا الفارق الشاسع بين الحسنة والسيئة لا بد أن يكون نصبَ أعيننا وملءَ كياننا عندما نتعامل مع الآخرين، فلا يصح أن ندفع إساءاتهم إلينا بطريقة سيئة، كما ليس مقبولًا منّا أيضًا أن نكون من أصحاب عدم المبالاة الذين لا يهتمون أصلًا بكيفية ردّهم الإساءة، فيردّون كيفما اتفق لهم أن يردّوا أو مثلما تشتهي أنفسهم الردّ، بحجة أنهم غير مهتمين بآراء الناس وما يقولونه عنهم.

حقًا أنّ الإسلام يريد من تابعيه ألّا تكون أعمالهم بقصد

(١) ميزان الحكمة ٢: ٤٣٦.

الحصول على رضا الناس، بل لا بد أن يكون رضا الله سبحانه هو الغاية والمراد، لكنْ من الحق أيضًا أنه لا يريد منهم أن يتجاهلوا تمامًا آراء الناس فيهم، فيكون هذا التجاهل داعيًا إلى التصرف معهم على غير الموازين الصحيحة، بل المطلوب اللجوء إلى المداراة في التعامل والحرص على استيعابهم وعدم الاصطدام معهم قدر الإمكان، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض»[١]. وتقتضي هذه المداراة أن يتعامل المرء مع جميع من حوله تعاملًا حسنًا بالنحو الذي يريده الله سبحانه منّا، وفي هذا قال الإمام محمد بن علي عليه السلام: «من أطاب الكلام مع موافقيه ليؤنسهم، وبسط وجهه لمخالفيه ليأمنهم على نفسه وإخوانه فقد حوى من الخيرات والدرجات العالية عند الله ما لا يقادر قدره غيره»[٢].

المحطة الثانية:

موقف الإنسان المسلم من الإساءات التي تُوجّه إليه هو موقف «الدفع» فقط، أي أن يدفع الإساءة بعيدًا ويردّها عن

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ٧٢: ٤٤٠.
(٢) نفسه ٧٢: ٤٠١.

نفسه فحسب، وليس موقف الانتقام والرغبة في التشفّي أو «رد الصاع صاعين» كما يقال، فهذه التصرفات ستقود أي مجتمع من المجتمعات إلى كثير من التشنجات والمشكلات المعقدة التي قد تكون ذات منشأ تافه صغير في الأساس.

إنّ الموقف الأصلي المطلوب من المسلم هو العفو عن الأخطاء والمكاره التي تُرتكب في حقه، وعن هذا قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالعفو، فإنّ العفو لا يزيد العبد إلا عزًا، فتعافوا يعزكم الله»[1].

ونقرأ في سِيَر النبي والأئمة الطاهرين (صلوات الله عليهم) مواقف كثيرة من العفو تثير عندنا الانبهار وشدة الإعجاب، فمن هذا مثلًا ما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام من أنّ رجلًا أتاه فقال له: إنّ فلانًا ابن عمك ذكرك، فما ترك شيئًا من الوقيعة والشتيمة إلا قاله فيك، فقال أبو عبد الله عليه السلام للجارية: «ايتيني بوضوء». فتوضأ ودخل، فقلت في نفسي: يدعو عليه، فصلى ركعتين، فقال: «يا رب، هو حقي قد وهبته له، وأنت أجود مني وأكرم فهبه لي ولا

(١) ميزان الحكمة ٦: ٣٦٧.

تؤاخذه ولا تقايسه»، ثم رقّ فلم يزل يدعو، فجعلتُ أتعجب»[١].

المحطة الثالثة:

كون الموقف موقف «دفع»، لا يسوّغ للمسلم أن يتصرف كيفما أراد، بل لا يكتفي القرآن منه بأن يجعل دفعه حسنًا حتى يجعله ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾. نعم، لا بد لنا من البحث عن أحسن المواقف وأحسن الردود بإزاء السيئة، ولا نكتفي بأيسر الأعمال وأسهل الأقوال، بل نسعى جادّين نحو ما هو أحسن.

إنّ هذا البحث الصادق عمّا هو أحسن لأمارة دالّة بوضوح على رفعة الهمة وشرفها عند المسلم، فهو لا يقنع بالسهل المتاح، بل لا تستريح نفسه ولا يطمئن فؤاده إلا بمعالي الأفعال وشرائف الأقوال، وفي هذا رفعة لقيمته عند الله تعالى وفي أنظار الناس، وكل ذلك له انعكاسه المباشر على المجتمع واستقراره وسعادته. روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «من شرفت همّته عظمت قيمته»[٢].

---

(١) الأنوار البهية في تواريخ الحجج الإلهية، الشيخ عباس القمي، ص ١١١.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ٣٦٣.

المحطة الأخيرة:

إنّ الإنسان الفرد منّا مطالب بأن يتمعن في الآثار الاجتماعية التي تترتب على سلوكه الفردي في المجتمع، فإذا هو دفع الإساءة الموجهة إليه بالطريقة الحسنى فإنّ الأثر الاجتماعي سيكون باهرًا حقًا: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾. نعم، إنّ التعامل الحسن يؤثر في النفوس الحية من البشر لا محالة، فكيف إذا كان تعاملًا بالأحسن؟ إنه كفيل بأن يقضي على الضغائن، ويزيل الأحقاد، ويغسل ما في النفوس من أدران وإحن، ويعيد إليها صفاءها ووادها.

وقد لاحظ بعض المفسرين ما في استعمال الآية لأداة التشبيه «كأنّ» من دلالة: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، فهي تفيد أنّ الشخص المقابل قد لا يتحول إلى صديق حميم حقيقةً، لكن دفعك بالأحسن سيجعله يتصرف معك كأنه وليّ حميم وليس عدوًا لك[1]، وهذا المقدار كافٍ لجعل الحياة الاجتماعية مستقرة خالية من التشنجات والمنغّصات.

وفي حيوات المعصومين والصالحين يجد المرء قصصًا

(١) انظر: روح المعاني، العلامة الألوسي ٢٤: ٥١٣، والأمثل ١٥: ٢٩٦.

كثيرة لمواقف حوّلوا فيها أعداءهم إلى أصدقاء وأولياء باختيارهم أحسن أنواع الدفع لسوئهم وأذاهم، فمن القصص المرويّة في هذا المجال أنه «وقف على علي بن الحسين عليه السلام رجل من أهل بيته، فأسمعه وشتمه فلم يكلّمه، فلمّا انصرف قال لجلسائه: قد سمعتم ما قال هذا الرجل، وأنا أحب أن تبلغوا معي إليه حتى تسمعوا مني ردي عليه، فقالوا له: نفعل ولقد كنّا نحب أن تقول له ويقول، فأخذ نعليه ومشى وهو يقول: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]، فعلمنا أنه لا يقول له شيئًا، فخرج إلينا متوثبًا للشر، وهو لا يشك أنه إنما جاءه مكافيًا له على بعض ما كان منه، فقال له علي بن الحسين عليه السلام: يا أخي، إنك كنت قد وقفت عليّ آنفًا وقلت وقلت، فإن كنت قد قلت ما فيّ فأنا أستغفر الله منه، وإن كنت قلت ما ليس فيّ فغفر الله لك، فقبّل الرجل بين عينيه وقال: بلى بل قلت فيك ما ليس فيك، وأنا أحقّ به»[2].

وفي مقابل هذا كله، إذا ردّ الإنسان الإساءة ردًا سيئًا،

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.
(٢) الأنوار البهية، ص ١١١.

وقابل الخطأ بخطأ قد يكون أفدح منه أو مساويًا له، بأنْ أبرز من نفسه سوءَ خلق في مقام يتطلب منه سعة صدر وتحليًا بالقيم الرفيعة فإنه لن يورث مجتمعه إلا شقاقًا وخلافًا ونفورًا بين الناس، وفي هذا روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «سوء الخلق يوحش القريب وينفّر البعيد»[1].

(١) ميزان الحكمة ٣: ١٥٣.

٣ - حب شيوع الفاحشة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

ثمة كلام بين المفسرين في أنّ هذه الآية الكريمة أهي نازلة مع الآيات المتقدمة عليها المتحدثة عن قضية الإفك المعروفة تاريخيًا - وهي قضية اتهام زوج النبي ﷺ عائشة أو مارية القبطية بارتكاب الزنا - فيكون مضمون الآية، بناءً على هذا، تهديدًا لأولئك الرامين بالإفك، ويكون المراد من الفاحشة التي يحبون شيوعها الرمي بالزنا من غير دليل، أم أنّ هذه الآية مستقلة عن الآيات السابقة؟ وعلى هذا يكون للفاحشة معناها

(١) سورة النور، الآية: ١٩.

المطلق غير المستمد بالضرورة من القضية التاريخية المشار إليها، والفاحشة - كما ذكر الراغب الأصفهاني في مفرداته - «ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال»[١]، ومن الجليّ ما لهذا المعنى من آفاق واسعة وأبعاد شاسعة.

ومهما يكن من أمر، فالآية تستعمل أسلوبًا قويًا مخيفًا في تهديد أولئك الناس الذين يحبون شيوع الفاحشة بين المؤمنين، وتتوعدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة. فأما العذاب الأليم في الآخرة فهو معروف، ويتمثل في دخول النار والوقوع تحت طائلة تلك الصنوف المرعبة من العذاب الذي تحدث عنه القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وأما العذاب الأليم في الدنيا فقد ذهب بعض المفسرين إلى أنّ المراد به الحدود الشرعية التي تقام عليهم، لكنّ هذا الرأي ضعّفه العلامة الطباطبائي (قدس سره) مستندًا إلى أنّ مجرد حب شيوع الفاحشة لا يستوجب الحد، ولو كان المراد بحب الشيوع هنا الكنايةَ عن حصول القذف فعلًا فلا معنى لتقييده بقصد الشيوع[٢]. ومن المفسرين من ذهب إلى أنّ المراد من

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة «فحش».
(٢) الميزان في تفسير القرآن ١٥: ٩٣.

العذاب الأليم في الدنيا هو العقاب الاجتماعي من الانفضاح والإدانة وعدم تقبّل الشهادة منهم، وغير ذلك من مظاهر اجتماعية[١]. والحقّ أنّ الكلمة (عذاب) مطلقة، فلا مقتضي لتقييدها بنوع معيّن من العذاب، بل هي متناولة بإطلاقها كل عذاب متصوّر أو غير متصوّر.

وتُختتم الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، وفيه مال المفسرون إلى أقوال متعددة، أهمها:

أ - الله - تعالى - يعلم هؤلاء الذين يفعلون ذلك، وأنتم قد لا تعلمونهم.

ب - إنه - سبحانه - يعلم بعواقب هذه التصرفات وآثارها الدنيوية والأخروية، وأنتم لا تعلمون.

ت - هو - جلّت قدرته - يعلم كيف يشرّع الأحكام الكفيلة بمنع ارتكاب هذه الأعمال القبيحة، وأنتم ليس لكم علم بذلك.

ونتوقف، بعد هذا، عند أهم الفوائد المغتنمة من الآية الشريفة:

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ١١: ٣٧.

الفائدة الأولى:

تحذّرنا الآية الكريمة من ﴿ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ أن تشيع الفاحشة في المجتمع المؤمن، فمجرد علمنا بحبهم ذلك يقتضي منّا ضرورة اليقظة والانتباه وأخذ جانب الحيطة والحذر، لا أن نظل متغافلين عنهم، ومعرضين عن خطرهم بحجة أننا لا نؤمن بنظرية المؤامرة، كما يقال هذه الأيام، ولا نريد أن نستبق الأحداث، ولا أن نتهم الناس بالسوء!

إنّ الإنسان المؤمن ينبغي له دومًا - مع إحسانه الظن بالآخرين - أن يكون عميق النظرة ودقيق الفكرة، فلا يُخدع بالمظاهر الخلابة والشعارات البراقة، مثلما قال الرسول الأكرم ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله عز وجل»[1].

وهذه الفراسة تقتضي أن يحاول توقّع الأمور قبل حدوثها، وأن ينظر في عواقب الأشياء، فيقي نفسه ومجتمعه من الأخطار قبل وقوعها، ومن المصائب قبل حصولها، فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «من نظر في العواقب

(١) ميزان الحكمة ٧: ٤٣٧.

سلم من النوائب، من فكّر في العواقب أمن المعاطب»[١]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «النظر في العواقب تلقيح للقلوب»[٢]. وقد يبدي كثير من الناس للمؤمنين حبهم واحترامهم، ويتظاهرون أمامهم بأنهم لا يريدون لهم إلا خيرًا، لكنهم في واقعهم لا يضمرون لهم إلا الشر والسوء، وينتظرون الفرصة المواتية التي تمكّنهم من تحقيق مآربهم والوصول إلى أهدافهم الحقيقية. فهؤلاء ينبغي للمؤمنين أن يحذروهم وأن يكونوا على الدوام في يقظة وحذر مما يسعون إليه.

الفائدة الثانية:

خطورة القضية كما تبيّنها الآية كامنة في أنّ هؤلاء الذين تتحدث عنهم يحبون ﴿أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ الفاحشة في المجتمع المؤمن، والشيوع كلمة ينبغي لنا أن نوليها ما تستحقه من اهتمام وعناية في الوعي والممارسة معًا. فأما من ناحية الوعي فعلينا أن ندرك تمامًا ما لنشر الأخبار المسيئة إلى الآخرين والمعلومات ذات الطابع غير اللائق من آثار سلبية في

(١) ميزان الحكمة ٢: ٣٨٥.
(٢) نفسه.

الآخرين، وما لذلك كله من انعكاسات سلبية على العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد، وأما من ناحية الممارسة فينبغي للمؤمن أن يشعر بمسؤوليته الشرعية والأخلاقية شعورًا حاضرًا بحقّ، يمنعه من نشر كل خبر يصل إليه وكل معلومة تبلغه، نظرًا لما لذلك من آثار خطيرة، لا سيما في عصرنا هذا الذي انتشرت فيه وسائل التواصل الاجتماعي وتطوّرت تطوّرًا كبيرًا يأذن بنشر أية معلومة في لمح البصر إلى أقاصي الدنيا. إنّ النشر مسؤولية، وعلى الناشر أن يتحمل هذه المسؤولية، وإلا فليدع النشر من أساس، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أذاع فاحشة كان كمبتديها»[١].

ومن المهم جدًا هنا أن نلاحظ أنّ كون الخبر صادقًا ليس مسوّغًا كافيًا لنشره، فربما يكون في نشره ضرر على بعض المؤمنين أو على المجتمع، بل لربما على الإسلام كله؛ لذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه فهو من الذين قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»[٢].

(١) تفسير نور الثقلين، الشيخ الحويزي، ٥: ١٣٣.
(٢) البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم البحراني، ٥: ٣٧٣.

الفائدة الثالثة:

إنهم يحبون أن شيوع الفاحشة وانتشارها ﴿فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فهم في الحقيقة إنما يستهدفون هذا الإيمان دون غيره؛ لأنهم يدركون جيدًا أنه السر في قوة المجتمع المؤمن وصلابته أمام دسائسهم ومكرهم.

الإيمان هو الذي يجمع شمل المسلمين جميعًا في أخوّة إيمانية عزّ نظيرها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، وهي الأخوّة التي تجعل أحدهم يستشعر هموم الآخرين ولا يرضى إطلاقًا بظلمهم والإساءة إليهم. روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إنّ المؤمن أخو المؤمن، عينه ودليله، لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشّه ولا يعده عدةً فيخلفه»[2].

والإيمان الحقيقي هو الذي يدعونا دومًا إلى التثبّت والتحقّق قبل تصديق الأنباء التي تأتينا عن المؤمنين الآخرين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[3].

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.
(٢) أصول الكافي، الشيخ الكليني ٢: ١٠٤.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ٦.

وقد بلغت عناية الإسلام بهذه الناحية درجة لا مثيل لها، ويتضح ذلك بجلاء في هذه الرواية التي رواها محمد بن الفضيل عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام قال: «قلت له: جعلتُ فداك، الرجل من إخواني يبلغني عنه الشيء الذي أكرهه، فأسأله عن ذلك، فينكر ذلك، وقد أخبرني عنه قوم ثقات؟ فقال لي: يا محمد، كذّب سمعك وبصرك عن أخيك، فإن شهد عندك خمسون قسامة وقالوا لك قولًا فصدّقه وكذّبهم، لا تذيعنّ عليه شيئًا تشينه به، وتهدم به مروءته، فتكون من الذين قال الله في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾»[1].

وما كل هذه العناية إلا من منطلق حرص الإسلام على استتباب الاستقرار في المجتمع الإيماني، واجتناب كل ما من شأنه خلق الفتن بين المؤمنين وإيغار صدور بعضهم على بعض، وهو ما لا يروق الذين يريدون بالإيمان والمؤمنين سوءًا؛ لذا تراهم ﴿يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

(١) البرهان في تفسير القرآن ٥: ٣٧٣.

الفائدة الأخيرة:

لا بد للمجتمع المؤمن من أن يقف من مشيعي الفتن والقلاقل موقفًا معارضًا جادًا يظهر فيه الحزم الواضح، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «الحزم كياسة»[١]. فمن دون هذا الحزم لن يؤول أمر المجتمع المؤمن إلا إلى الحسرة والندامة اللتين لن تجدياه نفعًا، فمن الخير له، إذًا، أن يتذكر تلكم الحسرات ويتجنب المصير إليها من خلال استعمال الحزم في محله، وهذا ما أرشدنا إليه الإمام علي الهادي عليه السلام بقوله: «اذكر حسرات التفريط بأخذ تقديم الحزم»[٢].

ومن الخطورة بمكان عظيم أن يلجأ المؤمنون إلى تملّق هؤلاء الذين يريدون بهم سوءًا، فمثل هذا التملّق ليس من سمات المؤمن على الإطلاق، وسيضرّ بإيمانه لا محالة، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله: «إياك والملق، فإنه ليس من خلائق الإيمان»[٣].

---

(١) ميزان الحكمة ٢: ٣٨٥.
(٢) نفسه ٢: ٣٨٤.
(٣) نفسه ٩: ١٧٤.

ومهما كانت الدنيا التي يلوّحون بها غرّارة جذّابة، فإنّ المؤمن ينبغي له أن يفكر في شأن آخرته، فلا يستجيب لإغراءاتهم وتسويلاتهم الزائلة، ولا يتخلى عن ممارسة الحزم ضدهم مهما كلّفه ذلك، وليتذكر دومًا كلمة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا الخصوص: «الحازم من لم يشغله غرور دنياه عن العمل لآخرته»[١].

(١) ميزان الحكمة ٢: ٣٨٧.

٤ - الأكثرية والضلال

﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾[١].

كان نزول هذه السورة، سورة الأنعام، في مكة المكرمة، حين كان المسلمون قليلي العدد، واحتمل بعض المفسرين[٢] أن تكون هذه القلة قد دعت بعضهم إلى توهّم أنه إذا كان الإسلام دين حق فلماذا أتباعه قلّة؟ وإذا كان الجاهليون على باطل فلماذا هم كثرة؟ فلأجل دفع هذا التوهم جاءت الآية الكريمة مخاطبةً في ظاهرها النبي الأكرم محمدًا ﷺ، لكن ذلك ليس إلا من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة». فالمراد

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.
(٢) منهم صاحب الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٤: ٣٠٢.

في الحقيقة هو خطاب أولئك المتوهمين وأمثالهم ممن تخالجهم شبهات مماثلة.

وصفوة القضية التي تبيّنها الآية هي أنّ طاعة أكثرية الناس ستؤدي بالمطيع إلى أن يضلّ عن سبيل الله تعالى؛ وذلك لأنّ الأكثرية لا تتبع سوى الظن والخرص. والخرص، في اللغة، هو التخمين (أو الحزر)، وهو الكذب أيضًا[١]. وقد رجّح صاحب الميزان أن يكون المعنى الأول هو المراد في الآية الشريفة؛ وذلك لأنّ اتّباع الظن والقول بالخرص قد وقعا موقع التعليل للضلال الحاصل من إطاعة أكثر من في الأرض، والموقِع في الضلال هو اتّباع الظن والقول بالتخمين في الأمور التي لا يسوغ الاعتماد فيها إلا على العلم واليقين، كالمعارف الراجعة إليه تعالى والشرائع المأخوذة من قبله[٢]. بيد أنّ هناك من المفسرين[٣] من احتمل المعنيين جميعًا دونما ترجيح لأحدهما على الآخر.

وكيفما كان، فالذي يعنينا الوقوف عنده هو السؤال عن

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، مادة «خرص».
(٢) الميزان في تفسير القرآن ٧: ٣٣٠.
(٣) كصاحب الأمثل مثلًا ٤: ٣٠٣.

الأسباب الكامنة وراء هذه القضية الخطيرة التي تتحدث الآية عنها، فلماذا تقود طاعة الأكثرية إلى الوقوع في الضلال؟

يمكن هنا ذكر الأسباب المهمة الآتية:

السبب الأول:

طاعة الأكثرية تعني، في كثير من الأحايين، أنّ المرء قد وضع طاعته حيث لا تنبغي؛ فهو مأمور بطاعة الله سبحانه وطاعة من أمره الله بطاعته، ومن المعلوم أنّ طاعة الأكثرية قد تقود في غير هذا الاتجاه، فتستدعي الانحراف عن الطريق الإلهي القويم؛ لذا ورد في تفسير القمي: «يعني يحيّروك عن الإمام، فإنهم مختلفون فيه»[1].

إنّ الإسلام حين يحذّر من الطاعة العمياء للأكثرية ليعي أنّ الوقوع تحت تأثير العقل الجمعي قد يجعل الفرد يتحرك تحركًا مخالفًا لقناعاته الفكرية والروحية الحقيقية، ويدعوه إلى أن يضع طاعته في مواضع قد لا يراها مناسبة إذا عاد إليه تفكيره الفردي الذاتي الهادئ. وهذه حقيقة أثبتتها دراسات

(١) تفسير القمي، لأبي الحسن علي بن إبراهيم القمي، من أعلام القرنين ٣ و هـ، ١: ٢١٥.

علم النفس الاجتماعي حديثًا، فكتب غوستاف لوبون: «إليكم الآن مجموع الخصائص الأساسية للفرد المنخرط في الجمهور: تلاشي الشخصية الواعية، هيمنة الشخصية اللاواعية، توجه الجميع ضمن نفس الخط بواسطة التحريض والعدوى للعواطف والأفكار، الميل لتحويل الأفكار المحرّض عليها إلى فعل وممارسة مباشرة. وهكذا لا يعود الفرد هو نفسه، وإنما يصبح عبارة عن إنسان آلي، ما عادت إرادته بقادرة على أن تقوده»[١].

المطلوب من المسلم، إذًا، أن يتمسك بطاعة ربه ومن أمره ربه بطاعته، وألّا ينخرط في طاعة شيطانه، حتى إذا تحدث الشيطان بألسن الأكثرية، وألّا يكون من أولئك الذين وصفهم أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله: «دعاكم ربكم سبحانه فنفرتم وولّيتم، ودعاكم الشيطان فاستجبتم وأقبلتم...»[٢].

السبب الثاني:

وجود الفرد داخل جماعة قد تشكلت من ﴿أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ قد يجعله يغترّ بهذه الأكثرية، فيستشعر قوةً كان

(١) سيكولوجية الجماهير، غوستاف لوبون، ص ٦٠.
(٢) ميزان الحكمة ٥: ٥٦٧.

يفتقدها حين كان فردًا، وربما يكون لاغتراره بهذه القوة المستجدة آثار سلبية وخيمة، منها اتّباع بعض الغرائز كما يقرر لوبون: «إنّ الفرد المنضوي في الجمهور يكتسب بواسطة العدد المتجمع فقط شعورًا عارمًا بالقوة، وهذا ما يتيح له الانصياع إلى بعض الغرائز، ولولا هذا الشعور لما انصاع. وهو ينصاع لها عن طوع واختيار؛ لأنّ الجمهور مغفل بطبيعته، وبالتالي فغير مسؤول. وبما أنّ الحس بالمسؤولية هو الذي يردع الأفراد فإنه يختفي في مثل هذه الحالة كليًا»[١].

لقد حذّرت النصوص الشرعية من الاغترار بالكثرة والسير الأعمى وراءها، وبيّنت الآثار الخطيرة التي يمكن أن تنتج من ذلك، فعلى سبيل المثال قول الإمام موسى الكاظم عليه السلام لفضل بن يونس: «أبلغ خيرًا، وقل خيرًا، ولا تكن إمّعة». قلت: وما الإمّعة؟ قال: «لا تقل أنا مع الناس، وأنا كواحد من الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: يا أيها الناس، إنما هما نجدان: نجد خير ونجد شر، فلا يكن نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير»[٢].

(١) سيكولوجية الجماهير، ص ٥٨.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ٢٥٦.

وذكر بعض المفسرين في تفسيره للآية الكريمة محل بحثنا أنّ الإغراء والجذب الموجودين في اتّباع الأكثرية بلغا درجة استدعت أن يحذّر الله نبيّه من هذا الاتّباع[١]، ومن الواضح أنّ سماحة المفسر يشير هنا إلى ظاهر الآية، وإلا فهي في واقعها من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة». أي أنّ المقصود هو غير النبي ﷺ من أفراد أمته، كما تقدم البيان.

السبب الثالث:

إنّ طاعة الإنسان للأكثرية تقتضي ألّا يبحث عن الهدى، وألّا يسعى إلى الهرب من الضلال، بل يقع في الضلال بالنتيجة: ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾. ومردّ ذلك - وفق كلام لوبون - إلى أنّ «هذا الفرد لا يعود واعيًا بأعماله، فحالته تشبه حالة المنوّم مغناطيسيًا، بمعنى أنّ بعض ملكاته تصبح مدمّرة، في حين أنّ بعضها الآخر يستثار ويستنفر إلى الحد الأقصى. وتأثير كل اقتراح يملى عليه أو كل تحريض يمثّل قوة طائشة لا يمكن ردّها من أجل تنفيذ بعض الأعمال»[٢].

ويؤكد الإسلام في نصوص كثيرة أنّ الإنسان المؤمن عليه

(١) تفسير نور (باللغة الفارسية)، الشيخ محسن قراءتي، ٣: ٣٣٨.
(٢) سيكولوجية الجماهير، ص ٥٩.

أن يتحرى الحق دومًا، وهو مطالب باتّباع الهدى الإلهي واجتناب الضلال الشيطاني، مهما كانت الظروف والضغوط المسلّطة عليه. فمن ذلك ما عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «ليكن شعارك الهدى»[١]، وكذلك عنه عليه السلام: «بالهدى يكثر الاستبصار»[٢].

السبب الأخير:

تقود طاعة الأكثرية الإنسانَ إلى الضلال عن سبيل الله لأنّ المنهج العقلي الذي تسير عليه الأكثرية يكون منهجًا غير علمي في الغالب، فهو منهج يقوم على اتّباع العواطف وغلبة المشاعر ولا يتحرى العلم واليقين بل ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾. وقد فسّر معظم المفسرين الظن هنا بمعناه المنطقي المعروف، أي الترجيح غير الواصل إلى درجة القطع واليقين، لكن سماحة السيد عبد الأعلى السبزواري (قدس سره) اختار أنّ «الظن في القرآن المجيد بمعنى خلاف الواقع، وإنْ كان قطعًا قد حصل التقصير في مقدماته»[٣]. فعلى هذا

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٣٢١.
(٢) نفسه.
(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن ١٤: ٣٢٥.

الأساس يكون الظن صادقًا على كل فكرة ليست مطابقة للواقع حتى إذا كانت متيقنة، ما دام هذا اليقين معتمدًا على مقدمات غير دقيقة، قد قصّر صاحبها في تحصيلها.

إنّ من الخصائص المعروفة للعقل الجمعي وسيكولوجية الجماهير عدم الاعتماد على العقل الواعي بصورة واضحة، وتغليب العقل اللاواعي عليه، وجعل العواطف والمشاعر هي الأساس الأكبر في القناعات والاتجاهات، «فالكفاءات العقلية للبشر وبالتالي فرادتهم الذاتية تمّحي وتذوب في الروح الجماعية، وهكذا يذوب المختلف في المؤتلف وتسيطر الصفات اللاواعية»[١]. وفي جوّ كهذا من الطبيعي المتوقع ألّا يبحث المرء عن اليقين، بل سينجرّ وراء ظنونه وتخميناته، وقد تصل به الحالة إلى الدرجة التي يصدّق فيها حتى أوهامه فضلًا على شكوكه، فيكون كما وصفه غوستاف لوبون في هذه الصورة الجميلة المؤثرة: «إنّ الفرد المنخرط في الجمهور هو عبارة عن حبة رمل وسط الحبات الرملية الأخرى التي تذروها الرياح على هواها»[٢].

(١) سيكولوجية الجماهير، ص ٥٧.
(٢) نفسه، ص ٦٠.

على أنّ ما تقدم لا يعني أنّ القرآن يدعوننا إلى ترك الاعتماد على الظن بنحو مطلق في كل حياتنا، فلو فعلنا ذلك لتعطلت حياتنا القائمة في معظم جوانبها على اتّباع الظنون، إذ أنّ اليقين الحقيقي لا يوجد في الواقع إلا في «بعض الكليات النظرية» وفق تعبير العلامة الطباطبائي[١]. فالمراد هو النهي عن اتّباع الظن في حالة وجود العلم أو إمكان تحصيله، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «إياك أن تغلبك نفسك على ما تظن، ولا تغلبها على ما تستيقن، فإنّ ذلك من أعظم الشر»[٢]. وكذلك فإنّ اتّباع الظن منهي عنه فيما يرتبط بالجانب العقدي، فالعقيدة لا بد أن تقوم على أساس القطع واليقين، وليس على أساس الظنون، وهذا ما أكده القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها الآية الشريفة التي هي محل البحث، فقد عدّت اتّباع الظن مساوقًا للضلال عن سبيل الله تعالى، فسبيل الله الموصل إليه لا بد أن يُسلك اعتمادًا على القطع واليقين.

ويقتضي المقام هنا تسجيل أسف وألم من حالة بعض

(١) الميزان ٧: ٣٣٠.
(٢) ميزان الحكمة ٧: ٣٣٠.

أبنائنا وبناتنا ممّن ينساقون وراء بعض الإثارات الظنية التي يطّلعون عليها في بعض المواقع الإلكترونية أو القنوات الفضائية أو وسائل التواصل الاجتماعي فينخدعون بها، أو في أقل تقدير يصابون بالتشكك والتردد في بعض عقائدهم، مع أنّ هذه الإثارات لا تعدو أن تكون فقاعات فكرية لا تصمد أمام النقاش والنقد، وليس لها في عالم اليقين والعلم عين ولا أثر.

٥ - تولّي الصالحين

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾[1].

هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا بعد مجموعة من الآيات كان فيها حوار عقلي هادئ مع المشركين، ودعوة لهم إلى توحيد الله سبحانه وترك الشرك به، وقبل هاتين مباشرة كان ثمة تحدٍّ على لسان النبي ﷺ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[2]. وهنا بيان لسبب هذه الثقة الكبيرة التي ينطلق منها هذا التحدي، فالسبب هو كون النبي ﷺ معتمدًا على ولاية

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٩٦، ١٩٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٩٥.

الله الذي بيده مقاليد كل الأمور ومجاري كل التقادير، ومن كان كذلك فلا يخاف شيئًا ولا يخشى، فالله سبحانه هو الذي يتولى الصالحين، والولاية هنا - بقرينة السياق - هي بمعنى النصرة والإعانة. وحين يرتبط الإنسان بالولاية الإلهية فإنّ كل المعبودين المتخذين شركاءَ مع الله تعالى لن يستطيعوا عمل شيء له، فهم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم، فأنّى لهم أن ينصروا المغترين بهم والمخدوعين بشأنهم الذين اتخذوهم شركاء؟

ويجمل بنا أن نتناول مدلولات الآيتين المباركتين في محاور:

المحور الأول:

من الضروري أن نسعى إلى جعل علاقتنا بالله تعالى تكون علاقة ولاية حقيقية، فلا نكتفي بمجرد الإيمان به، مهما كان إيمانًا صادقًا وعميقًا، ولا نقتصر على أداء ما أوجبه علينا وترك ما نهانا عنه وامتثال كل العبادات التي لا بد لنا منها، بل علينا أن نستعينه سبحانه في كل أمورنا ونتولاه في جميع شؤوننا، فيتولى هو نصرتنا وإعانتنا، ولا يمكن لأي أحد - كائنًا من كان - أن يستغني عن النصرة الإلهية أو يجد عن العون الرباني بديلًا يغني عنه (جلّ شأنه).

والنصوص الشرعية زاخرة بهذا المعنى، فمن ذلك مثلًا:

- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[١].

- وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاث خصال من صفة أولياء الله: الثقة بالله في كل شيء، والغَناء به عن كل شيء، والافتقار إليه في كل شيء»[٢].

- وقول أمير المؤمنين عليه السلام: «اعتصم في أحوالك كلها بالله، فإنك تعتصم منه بمانع عزيز، ألجئ نفسك في الأمور كلها إلى إلهك، فإنك تلجئها إلى كهف حريز»[٣].

- وقول الإمام محمد الباقر عليه السلام: «من اعتصم بالله لا يُهزم»[٤].

المحور الثاني:

الملاحظ أنّ الآية الكريمة الأولى حينما تحدثت عن كون الولاية لله تعالى، ذكرت على الفور لله تعالى صفتين: إحداهما ترتبط بالجانب النظري التوجيهي ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ٧٥٤. و«الغناء» بفتح الغين هو بمعنى الغِنى.
(٣) قصار الجمل، علي المشكيني الأردبيلي، ٢: ٣٢٦.
(٤) نفسه.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والأخرى تتعلق بالجانب العملي ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وهذا إنما يدل على ضرورة توافر الجانبين معًا حينما نبحث عن النصرة والعون.

إنّ وجود الرغبة في العمل والعطاء، في الفرد والجماعة، ليس كافيًا في حد ذاته، ما لم تكن هذه الرغبة قائمة على أساس مكين من العلم والثقافة النظرية المناسبة، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[١]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «العامل على غير بصيرة كالسائر على السراب بقيعة، لا يزيد سرعة سيره إلا بعدًا»[٢].

وفي الجانب المقابل من القضية، ليس العلم وحده ضمانًا كافيًا للتقدم والفلاح ما لم يقترن بالعمل والممارسة، فعن رسول الله ﷺ: «العلم وديعة الله في أرضه، والعلماء أمناؤه عليه، فمن عمل بعلمه أدى أمانته، ومن لم يعمل بعلمه كُتب في ديوان الخائنين»[٣]. بل تفيد بعض النصوص الروائية

(١) قصار الجمل ٢: ٧٣.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ٢: ٧٢.

أنّ العلم غير المقترن بالعمل ليس علمًا في الحقيقة، وإنما هو جهل، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا تجعلوا علمكم جهلًا ويقينكم شكًا، إذا علمتم فاعملوا وإذا تيقنتم فاقدموا»(١).

وخلاصة القضية أننا إذا أردنا لأنفسنا - في المستويين الفردي والجماعي - التقدم والتطور في المنظور الديني الصحيح، فلا محيص لنا عن الاستمساك بالعروة الوثقى ذات الجانبين العلمي والعملي، وليس أحد هذين الجانبين مغنيًا عن قرينه، فلا بد من توافرهما معًا. يروى أنّ رجلًا جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «ما ينفي عني حجة الجهل؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: العلم، فقال: فما ينفي عني حجة العلم؟ قال: العمل»(٢).

المحور الثالث:

على الرغم من وقوع الآيتين الكريمتين في سياق التحدي والقوة، مثلما أسلفنا، فقد وصفتا الله سبحانه بصفتين لافتتين للانتباه في طبيعتهما: فالصفة الأولى هي أنه ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ

(١) نفسه.
(٢) ميزان الحكمة ٧: ٨.

ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، والكتاب - الذي هو القرآن الكريم - هو بصائر وهدى ورشاد، أنزله الله تعالى لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، والصفة الأخرى هي كونه سبحانه ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وهذه الصفة تذكّر أيضًا بالصالحين وما هم عليه من هدى ومنزلة عند ربهم يستحقون معها أن يتولاهم وينصرهم. الصفتان المذكورتان، إذًا، ترتبطان بعالم الهداية والصلاح والرشاد مع كون المقام مقام التحدي.

القرآن الكريم يعلّمنا ألّا ننسى - مهما توترت الأوضاع وتشنجت الظروف - الغاية الأساسية التي نسعى إليها في كل تعاملاتنا مع الناس من حولنا، وهي غاية طلب الخير والصلاح وابتغاء الهدى في كل الأزمنة والظروف. إنّ المسلم الحقيقي هو الذي لا تغلبه نفسه، ولا تنسيه تصرفات الآخرين تجاهه رسالته الحقيقية في الناس، وأهدافه السامية معهم، فهو لا يريد لهم إلا الخير، وحتى عندما يكون المقام مقتضيًا القوة والتحدي، فإنّ القوة تكون منطلقة من التمسك بالحق، والتحدي يكون منبعثًا من الإصرار على إرادة الخير للآخرين وإنْ لم يريدوه لأنفسهم نتيجة جهلهم أو غلبة شهواتهم النفسية

عليهم. وفي هذا المجال جميل جدًا أن نتذكر قولة شريفة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام جاء فيها: «عليكم بأعمال الخير فتبادروها، ولا يكن غيركم أحقّ بها منكم»[1].

المحور الرابع:

من وسائل التأثير في الناس وطرائق هدايتهم إلى الحق أن نلجأ إلى مخاطبة الجانب النفعي الكامن فيهم، فكل واحد منهم يريد بلا شك مصلحته الذاتية ومنفعته الشخصية، ولا يختار أي خيار قد يبعده عن ذلك، فضلًا على ما إذا كان يحرمه منه. وإذا كان هذا هكذا فعليهم جميعًا أن يختاروا الأخذ بالحق والسير في طريقه، ففيه خيرهم ومنفعتهم.

اختار القرآن الكريم اللجوء إلى هذه الوسيلة في غيرما مورد منه، والآيتان الكريمتان هما من هذه الموارد غير القليلة، ففيهما تنفير من اتخاذ شركاء لله تعالى من منطلق أنهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾، وما داموا لا ينفعونكم بشيء، فما معنى اتخاذكم إياهم شركاء لله تعالى؟

إنّ الإنسان، كل إنسان، مفطور على حب الخير لنفسه؛

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٠١.

لذا فهو يدأب على جلب المنافع ودفع المضارّ عنها، ويحرص على صيانتها دومًا، مثلما ذكر الإمام علي السجاد عليه السلام: «الخير كله صيانة الإنسان نفسه»[١]. ولمّا كان وضعه كذلك، فإنه يكفي لجلبه إلى الحق ودعوته إلى الالتزام بأحكام الشرع أنْ يُعرّف بأنّ الأحكام الشرعية إنما هي لتحقيق منافعه الحقيقية وجلب المصالح الواقعية التي يعلمها الباري - جلّت قدرته - في الدنيا والآخرة. فقد جاء في خطبة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع: «يا أيها الناس، والله ما من شيء يقرّبكم من النار ويباعدكم من الجنة إلا وقد نهيتكم عنه»[٢]، ومما ورد في وصية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام في سياق الحديث عن الله تعالى: «فإنه لم يأمرك إلا بحسن، ولم ينهك إلا عن قبيح»[٣].

المحور الأخير:

أنْ نتعلم من ربنا - تبارك اسمه - تولّي الصالحين، فلولا أهمية هذا الجانب وضرورته في الحياة لما تكفّل القرآن

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٠٣.
(٢) نفسه ٥: ٥٦٧.
(٣) نهج البلاغة، الكتاب ٣١، ص ٣٩٦ (طبعة صبحي الصالح).

الكريم بتذكيرنا به: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. إنّ صلاح الطرف الآخر يقتضينا أن نُشعر قلوبَنا محبته وأن نتعامل معه وفق مقتضى الأخوّة الإيمانية الصحيحة، فهذا ما تدعونا إليه الولاية الإلهية. روي أنّ رسول الله ﷺ قال لبعض أصحابه ذات يوم: «يا عبد الله، أحبب في الله، وأبغض في الله، ووالِ في الله، وعادِ في الله، فإنه لا تنال ولاية الله إلا بذلك، ولا يجد عبد طعم الإيمان وإنْ كثرت صلاته وصيامه حتى يكون كذلك. وقد صارت مواخاة الناس يومكم هذا أكثرها في الدنيا، عليها يتوادون وعليها يتباغضون، وذلك لا يغني عنهم من الله شيئًا...»[1].

وروي أنّ أمير المؤمنين عليًا عليه السلام قال فيما أوصى به عند وفاته: «وآخِ الإخوان في الله، وأحبّ الصالح لصلاحه»[2].

والمستفاد من النصوص الروائية الكثيرة الواردة في هذا المعنى أنها، من جهة، تريد من الشخصية المؤمنة أن تستشعر ما يقتضيه إيمانها في مجال العلاقات الاجتماعية والأواصر مع الناس، فشأنها ينبغي أن يكون مختلفًا عن الشخصيات

(١) بحار الأنوار ٦٦: ٢٣٦.
(٢) نفسه ٧١: ٢٧٥.

المادية غير المؤمنة بالله، فهذه تقيم كل علاقاتها الودية والعدائية على أساس الدنيا والمصالح المادية المتعلقة بها، وليس للقيم المعنوية والأسس الروحية أي حضور فاعل في تلك العلاقات، في حين أن الشخصية المؤمنة يُنتظر منها أن تجعل الارتباط بالله تعالى أساسًا لكل علاقاتها، فتتولى أولياء الله، وتتبرأ من أعدائه؛ لكون هؤلاء أعداءً لله، وأولئك أولياء له.

ومن جهة أخرى، تريد هذه النصوص لعلاقات التولّي هذه أن تشمل كل أبعاد وجود الإنسان، فلا تقتصر على المجاملات العرفية والعلاقات الاجتماعية السطحية، بل تبدأ من الداخل، من أعماق القلوب، بمحبة صادقة حقيقية، تغمر القلوب بنقائها وألقها، ثم تتدفق إلى السطح، إلى الجوارح والارتباطات الخارجية، فتتجلى في أبهى صور الأخوّة وأجمل مصاديق النصرة والعون.

٦ - العفو والعرف والإعراض

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[١].

تشتمل الآية الشريفة على ثلاثة طلبات إلهية موجّهة إلى الرسول الأكرم محمد ﷺ: فأما الطلب الأول فهو أن يأخذ «العفو». وقد اختلف المفسرون في تبيّن المراد من هذه الكلمة هنا، فمنهم من فهم منها معنى الزيادة - وهو أحد معانيها اللغوية - فذهب إلى أنّ الآية تريد من النبي ﷺ أن يأخذ من أموال الأغنياء ما فيها من زيادة ليعطيها الفقراءَ، وهذا ما نُسخ بعدئذ حينما شُرعت الزكاة. لكن هذا المعنى لا يتناسب مع السياق الذي وردت الآية فيه، فالسياق عقدي خلقي يتحدث

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

عن الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك، وليس هذا منسجمًا انسجامًا واضحًا مع الحديث عن الأموال وزياداتها.

ومن المفسرين من اختار أنّ المراد هو المغفرة، بمعنى أنّ على النبي ﷺ أن يتعامل مع الآخرين بكثير من التسامح والصفح عن ذنوبهم والتنازل عن حقه الشخصي في إزاء ظلمهم له وحرمانهم إياه وقطيعتهم معه، وعليه ﷺ أن يتخذ من المغفرة والصفح ديدنًا للتعامل ما دامت القضية في إطار حقوقه الخاصة التي يجمل به ألّا يصرّ على نيلها واستيفائها من الآخرين. وقد روي أنّه لمّا نزلت هذه الآية سأل رسول الله ﷺ جبرائيل عليه السلام عن ذلك، فقال: «لا أدري حتى أسأل العالم». ثم أتاه فقال: «يا محمد، إنّ الله يأمرك أن تعفو عمّن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وأعرض عن الجاهلين»[1].

وثمة من المفسرين من رجّح أن يكون المراد من «العفو» هو الوسط، وقد مال العلامة الطباطبائي إلى هذا بناءً على ورود رواية به عن الإمام الصادق عليه السلام وهي قوله: «إنّ الله أدّب رسوله (عليه وآله السلام) فقال: يا محمد، ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ

(١) تفسير نور الثقلين، الحويزي ٢: ٥٥٠.

﴿بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ قال: خذ منهم ما ظهر وما تيسّر، والعفو الوسط»[١]، وأيضًا بناءً على كون هذا المعنى أنسب بالآية وأجمع للمعنى من غير شائبة التكرار الذي يلزم من قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ على تفسير الكلمة بالمغفرة[٢].

وأما الطلب الثاني الذي تطلبه الآية من الرسول ﷺ فهو أن يأمر بالعُرف، و«العُرف» هو المعروف، وهو «ما يعرفه عقلاء المجتمع من السنن والسير الجميلة الجارية بينهم»[٣].

وأما الطلب الأخير فهو الإعراض عن الجاهلين، و«الجهل» هنا هو في مقابل العقل لا العلم، فالجاهل - بناءً على ذلك - هو الإنسان الذي يحكمه طيشه ونزقه وهواه، ولا يحتكم في أقواله وتصرفاته إلى عقله، مثلما قال الشاعر الجاهلي:

ألا لا يجهلن أحد علينا

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فأمثال هؤلاء الناس لا يرتجى منهم خير ولا يُؤمل منهم

(١) البرهان، البحراني ٣: ٢٥٧.
(٢) الميزان ٨: ٣٨٠.
(٣) نفسه.

اهتداء؛ لأنهم لا يريدون لأنفسهم إلا البقاء في هوّة عدم التعقّل وعدم الاسترشاد به، فليس أمام المصلح الرباني سوى أن يدعهم وشأنهم ويُعرض عنهم.

وفي الآيات ثمرات يانعة ينبغي لنا أن نَفيد منها:

الثمرة الأولى:

يستفاد من الآية الشريفة أنّ التكامل في الشخصية المؤمنة ينبغي أن يشمل كل جوانب هذه الشخصية، على تنوّعها وكثرتها، لا أن يقتصر على جانب أو جوانب دون غيرها. وقد وردت في هذا المعنى رواية عن الإمام الصادق عليه السلام دلّت على أنّ المكارم كلها قد اجتمعت في هذه الآية المباركة، وذلك قوله عليه السلام: «ألا وإنّ مكارم الدنيا والآخرة في ثلاثة أحرف من كتاب الله عز وجل: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وتفسيره أن تصل من قطعك، وتعفو عمّن ظلمك، وتعطي من حرمك»[1].

ونقل صاحب التفسير الأمثل عن «بعض الحكماء» - دون تسمية - قوله في تفسير هذا الحديث:

(١) البرهان ٣: ٢٥٧.

«إنّ أصول الفضائل الأخلاقية وفقًا لأصول القوى الإنسانية (العقل والغضب والشهوة) تتلخص في ثلاثة أقسام:

١ - الفضائل العقلية: وتدعى بالحكمة، وتتلخص بقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾.

٢ - والفضائل النفسية في مواجهة الطغيان والشهوة، وتدعى بالعفّة، وتتلخص بـ ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾.

٣ - والتسلط على القوة الغضبية، وتدعى بالشجاعة، وتتلخص في قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1].

وأيةً ما كانت درجة دقة هذا الكلام المنقول عن «بعض الحكماء». فإنّ من الجدير بنا أن نعود إلى التعبير المدهش والمؤثر الذي جاء في كلام الإمام الصادق عليه السلام: «مكارم الدنيا والآخرة»! فهو خليق بأن يكون منبّهًا أولئك الذين يحسبون أنّ التكامل الإنساني الحقيقي مرهون بتقدمه الفكري والثقافي فقط، فتراهم لا يبذلون جهدًا حقيقيًا إلا في هذا المجال دون غيره، فكل همّهم الشاغل هو أن يستزيدوا من العلم والثقافة، دون أن يعيروا من اهتمامهم ما يكفي للجوانب

(١) الأمثل ٥: ٢٣١.

الأخرى من الشخصية كالجوانب الروحية والخلقية والاجتماعية والتربوية وغيرها، مع أنّ هذه الجوانب لا تقلّ أهمية عن الجانب الفكري إن لم تزد عليه، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل المؤمنين أحسنهم خلقًا»[١].

الثمرة الثانية:

«الوسط» هو منهج الاعتدال الذي يريده الإسلام حاضرًا مطبّقًا دومًا في المستويين الفردي والجماعي، فلا التفريط في الأمور مطلوب ولا الإفراط، والخير كل الخير يكون في التوسط بينهما. هذا المنهج ينادي به الإسلام في المستوى العقدي، فهو لا يرتضي الإلحاد ونفي وجود الخالق من جهة، مثلما لا يرتضي أيضًا الشرك وتعدد الآلهة من جهة أخرى، وإنما يدعو الناسَ إلى التوحيد: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾[٢].

وينادي الإسلام بهذا المنهج الوسطي في المستوى العبادي أيضًا، فلا يريد من الناس أن يهملوا العبادة ويقصّروا

(١) ميزان الحكمة ١: ٣٤١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

فيها، كما لا يريد منهم أيضًا أن يثقلوا على أنفسهم بالمستحبات والنوافل، فقد ورد في كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى الحارث الهمداني: «خادع نفسك في العبادة وارفق بها، ولا تقهرها، وخذ عفوها ونشاطها، إلا ما كان مكتوبًا عليك من الفريضة، فإنه لا بد من قضائها وتعاهدها عند محلّها»[١].

والمنهج نفسه يتّبعه الإسلام في المعاملات بين الناس وكل القضايا المتعلقة بمعيشتهم ونظم أمور الحياة الاجتماعية المتنوعة، فيقول مثلًا: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[٢].

إنّ لزوم هذا المنهج الوسطي وعدم الانحراف عنه لكفيل بجعل الحياة كلها تصطبغ بالصبغة الإلهية التي هي نداء الفطرة الإنسانية السليمة من الملوّثات والكدورات، وآنئذ فقط يمكن للبشرية أن تتذوق طعم الهناء الذي يريده الإسلام لها، أما الإعراض عن الوسطية فلا يقود المجتمع، بل البشرية كلها، إلا إلى الخسران المبين.

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب ٦٩.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

الثمرة الثالثة:

الوسطية المطلوبة لا تعني التنازل عن الحقوق العامة أو المداهنة فيها، هذه ثمرة مهمة جدًا لا بد أن نستحضرها إلى جانب الثمرة السابقة؛ كي لا يظن بعضٌ أنّ الشخصية المسلمة هي الشخصية المتساهلة في حقوق المسلمين والمتنازلة عن أحكام الشرع أو ما يكفل صلاح حال الإسلام وأهله.

لقد تقدم بيان أنّ الآية الكريمة حين دعت إلى «العفو» فإنها كانت تتحدث عن أنّ النبي ﷺ ينبغي له أن يغفر ويتساهل مع الناس ويسامحهم حينما يرتبط الموضوع بحقه الشخصي فقط؛ لذا نجدها بعد طلب أخذ العفو طالبت مباشرة بالأمر بالعرف، فلا محاباة ولا مجاملات عندما تكون القضية مرتبطة بحقوق الناس والدين والمجتمع؛ لذا وجدنا الإمام عليًا أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «الحق أبلج، منزّه عن المحاباة والمراءاة»[1].

وإنّ من المؤسف حقًا أن يتخذ بعض الناس من الوسطية شعارًا يدعون بواسطته إلى أن يتساهل المسلمون مع أعداء

(١) ميزان الحكمة ٢: ٤٦٥.

الأمة ممن اغتصبوا أراضيها وعاثوا فيها فسادًا، وما زالوا لا يكفّون عن اعتداءاتهم وظلمهم وجبروتهم الشيطاني. فكأنّ الوسطية عندهم تعني الإغماض عن الحقوق والتنازل عن كل المقدسات والكرامة!

ومثل هؤلاء أيضًا أناس آخرون يجعلون من الوسطية مدعاةً إلى التساهل في تطبيق أحكام الشرع وعدم الالتزام بما في الدين من أوامر ونواهٍ، بحجة أنهم وسطيون، والوسطية هي ضد التزمت والتشدد في الدين، والتقيد الدقيق بالأحكام الشرعية هو - في أنظارهم - تزمت وتشدد لا داعي لهما! وهكذا صارت الوسطية عند هؤلاء وأضرابهم كلمة حق أريد بها باطل.

الثمرة الأخيرة:

لا مناص لكل إنسان يريد لنفسه أن يكون مؤثرًا في المجتمع، في أية زاوية منه وأي مجال من المجالات، من أن يتوقع وجود مجموعة من الجاهلين يحاولون الوقوف في وجهه، أولئك الذين لا يمتلكون من الإدراك والفهم ما يمكّنهم من استيعاب أهمية ما يبتغيه، أو لعلّ مصالحهم الخاصة وشهواتهم ختمت على قلوبهم وأعمت أبصارهم

فجعلتهم يواجهون الحق ويعترضون طريقه، كما قال الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «حب الدنيا يفسد العقل، ويصمّ القلب عن سماع الحكمة، ويوجب أليم العقاب»(١).

في هذه الحالات، على المؤمن ألّا يخضع ويضعف وينقاد إلى طاعة الجاهلين فيما يريدونه، وإلا كانت حاله كحالهم، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «طاعة الجهول تدل على الجهل»(٢).

إنّ عليه - بدلًا من ذلك - أن يكون ليّنًا مرنًا معهم فيما يتعلق به شخصيًا، فيتحمل أذاهم وطيشهم بصدر واسع رحب، ويقابلهم بالعفو والمغفرة؛ كيما يتمكن من مواصلة جهده البنّاء في المجتمع وتأدية الرسالة التي يضطلع بها. فإذا ما وجد هؤلاء الجاهلين لا يكفّون عن اختلاق العراقيل ووضع الصعاب والعقبات أمامه فليس له إلا أن يتركهم في حال سبيلهم ويُعرض عنهم، دون أن يتنازل لهم عن أهدافه العليا أو تقلّ بسببهم حماسته لأجل الحق والمبدأ. ولا شك أنّ الإعراض عنهم هو الموقف السليم الذي يقتضيه العقل

(١) قصار الجمل ١: ١٣٣.
(٢) ميزان الحكمة ٢: ١٥٥.

وتدعو إليه الحكمة، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحكم الناس من فرّ من جهّال الناس، وأسعد الناس من خالط كرام الناس»[١].

(١) قصار الجمل ١: ١٢٦.

٧ - عداوة الأزواج والأولاد

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

نزلت هذه الآية الشريفة - حسبما حدّثتنا المرويّات - في جمع من المسلمين الأوائل، كانوا يودّون الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنوّرة فرارًا بدينهم من أذى المشركين واضطهادهم، فأبي عليهم ذلك بعض أزواجهم وأولادهم؛ لئلا يضيعوا من بعدهم، فكان من المسلمين من أطاع ونزل عند إرادة الأزواج والأولاد فلم يهاجر، فنزلت الآية محذّرةً منبّهةً.

وتتضمن الآية ثلاثة مقاطع رئيسة:

(١) سورة التغابن، الآية: ١٤.

المقطع الأول: العداوة وطلب الحذر

تنبّه الآية المؤمنين على أنّ ثمة من الأزواج والأولاد من هو، في حقيقة الأمر، عدو لهم، وإنْ بدا في مظهر المحب المشفق، وقد يكون في واقع الحال محبًا مشفقًا حقيقةً لا ادّعاءً، فعلى المؤمنين أن يكونوا في هذا المجال حذرين؛ حتى لا يقعوا فيما لا تُحمد عقباه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾، وفي هذا المقطع مجموعة من الفوائد:

الفائدة الأولى: أساس العداوة الحقيقية في المنظور القرآني هو أن يتهدد إيمان المرء، ومن هنا نجد أنّ التنبيه الوارد في الآية على العداوة جاء مبتدئًا بهذا الخطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مما يعني أنّ القضية هنا لها صلة وثيقة بإيمان المخاطبين.

إنّ علاقة المؤمن - حسب النظرة القرآنية - مع الشيطان هي علاقة عداوة: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[1]، وما هذا إلا لكون الشيطان خطرًا على إيمان المؤمن وعلاقته بربه.

(١) سورة فاطر، الآية: ٦.

والشيء نفسه يقال أيضًا عن النفس الأمارة بالسوء، فهي تغري صاحبها باتّباع الشهوات والإعراض عن هدى الرحمن؛ لذا وجدنا في حديث رسول الله ﷺ: «أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك»[١]، وفي حديث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «نفسك أقرب أعدائك»[٢]. وهكذا فإنّ كل من أو ما يشكّل خطرًا على الإيمان ينبغي أن يكون في نظر المؤمن عدوًا.

الفائدة الثانية: في علاقة العداوة المذكورة، على المؤمن أن يحذر الوقوع تحت الضغط العاطفي الذي قد يدعوه إلى الرضوخ لما يخالف الإيمان، حينما يكون هذا الضغط صادرًا من أناس يرتبطون به بعلاقات اجتماعية وثيقة، كالأزواج والأولاد في مورد حديث الآية المباركة.

إنّ من أشد الامتحانات التي قد يتعرض لها إيمان المؤمن وأخطرها أنْ يدعوه إيمانه إلى اتخاذ مواقف معيّنة، وتدعوه محبته لأهله وأحبابه إلى مواقف مخالفة. هنا يظهر معدن الإيمان الحقيقي، وهنا أيضًا يتبيّن الزيف والغش، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «لا يمحض رجلٌ الإيمان بالله

(١) ميزان الحكمة ٦: ٩٥.
(٢) نفسه.

حتى يكون الله أحب إليه من نفسه وأبيه وأمه وولده وأهله وماله ومن الناس كلهم»[١].

الفائدة الأخيرة: تطلب الآية الشريفة من المؤمنين اتخاذ موقف الحذر، وهذا موقف لا يختلف عاقلان في مدى أهميته وضرورته، وفي كونه مقدّمًا على العلاج. أجل، على المؤمن أن يكون حذرًا من كل الأعداء الذين يريدون إلحاق الضرر بإيمانه، لا سيما حين يكونون قريبين منه وذوي ارتباط اجتماعي وثيق به. والحذر هنا يقتضي التدبر في عواقب الأمور وعدم الاسترسال على غير وعي ورويّة، ففي الحديث الشريف عن خاتم الأنبياء محمد ﷺ: «من نظر في العواقب، سلم في النوائب»[٢].

إنّ الإنسان الحذر ليدرك جيدًا أنّ من الخير له أن يلجأ إلى الوقاية من الأمراض الروحية والإيمانية والاجتماعية، بدلًا من أن يقع في المشكلات ثم يلجأ إلى اللتيّا والتي باحثًا عن علاجها فلا يجد، فحال هذه الأمراض كحال الأمراض البدنية التي يتفق العقلاء فيها على أنّ الوقاية خير من العلاج،

(١) قصار الجمل ١: ١٣٠.
(٢) نفسه ١: ١٩٦.

وما دام الأمر كذلك فلا محيص عن الدقة والتأني في التوقي. وهذا ما أكدته نصوص شرعية متعددة، كحديث النبي محمد ﷺ: «إذا هممت بأمر فتدبّر عاقبته، فإن يك رشدًا فامضه، وإن يك غيًا فانته عنه»[١]، وحديث الإمام الصادق عليه السلام: «قف عند كل أمر حتى تعرف مدخله ومخرجه قبل أن تقع فيه فتندم»[٢].

المقطع الثاني: التجاوز

في المقطع الثاني ترشد الآية الكريمة المؤمنين إلى أن يتصفوا بخلق التجاوز، وذلك حينما يكتشف الأزواج والأولاد خطأهم، ويتوبون منه ويتراجعون عن مواقفهم السابقة، فآنئذ ليس من داع لأنْ يطبّق المؤمنون ما كانوا قد توعدوهم به من أنهم لن يصلوهم ولن ينفعوهم بشيء أبدًا، بل المطلوب، في تلك الحالة، هو التجاوز.

والتجاوز الذي تتحدث عنه الآية الشريفة ذو أبعاد ومراتب: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وهذه المراتب هي:

---

(١) قصار الجمل ١: ١٩٥.
(٢) نفسه.

١ - العفو: بمعنى صرف النظر عن العقوبة، وعدم اللجوء إليها.

٢ - الصفح: وهو يمثّل مرتبة أعلى تتجلى في ترك أي توبيخ أو لوم.

٣ - الغفران: وهذه هي المرتبة الأعلى، وهي تعني ستر الذنب وتناسيه.

حقًا تحار الألباب في هذه الدقة وذاك العمق في تعامل الإسلام مع قضية التجاوز عن عثرات الآخرين، لا سيما حينما يكونون من أهل الرجل وذويه. إنّ الإسلام لا يكتفي بمطالبة أتباعه بترك العقوبة الخارجية، بدنيةً كانت أو ماليةً أو غيرهما، حتى يطالبهم باجتناب اللجوء إلى أي إيذاء لساني للطرف الآخر، فلا داعي للومه وتوبيخه وتقريعه على ما بدر منه ما دام قد ندم وتاب منه وعزم على تغيير وضعه. ولا ينبغي للمؤمن أن يتوقف عند هذا الحد، بل عليه أيضًا أن يسعى إلى ستر الذنوب الصادرة من الآخرين وإلى أن يتناساها مهما كان أثرها عميقًا في نفسه ووقعها كبيرًا في قلبه.

لقد نصّ الإسلام على هذا الخلق الرائع، بمراتبه الثلاث، في مواضع متعددة منه:

- فعن العفو قال: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[١].

- وفي البحث على الصفح قال: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[٢].

- ودعا إلى المغفرة بقوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾[٣].

ويجد المرء في الأحاديث الشريفة استفاضة في تناول هذا الجانب المهم من الحياة الاجتماعية، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «عليكم بمكارم الأخلاق، فإنّ الله عز وجل بعثني بها، وإنّ من مكارم الأخلاق أن يعفو الرجل عمّن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، وأن يعود من لا يعوده»[٤]، وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إنّا أهل بيتٍ مروّتنا العفو عمّن ظلمنا»[٥]. وإذا كان ذلك كذلك مع سائر الناس، فهو مع الأهل مطلوب أكثر، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٨٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٣.
(٤) بحار الأنوار ٦٨: ٤٢٠.
(٥) نفسه ٦٨: ٤١٤.

«أحسن الناس إيمانًا أحسنهم خلقًا، وألطفهم بأهله، وأنا ألطفكم بأهلي»[١].

ونقرأ في سِيَر النبي وأهل بيته الطاهرين (صلوات الله وسلامه عليهم) مواقف كثيرة ظهر فيها هذا الخلق النبيل في أجلى صوره وتجلياته، فمن هذه المواقف مثلًا الموقف الآتي للإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام:

«جعلت جارية لعلي بن الحسين عليه السلام تسكب الماء عليه وهو يتوضأ للصلاة، فسقط الإبريق من يد الجارية على وجهه فشجّه، فرفع علي بن الحسين عليه السلام رأسه إليها، فقالت الجارية: إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾[٢] فقال لها: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[٣] قال لها: قد عفا الله عنك، قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٤] قال: اذهبي فأنت حرة»[٥].

---

(١) بحار الأنوار ٦٨: ٣٨٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٤٨.
(٥) بحار الأنوار ٦٨: ٤١٣- ٤١٤.

المقطع الأخير: الله تعالى

تذكر الآية الكريمة، في مقطعها الأخير، الله (سبحانه وتعالى) فتقول: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١]. ويمكن أن يُبيّن لذكره - جلّ جلاله - وجهان:

الوجه الأول: زيادة ترغيب المؤمنين في التجاوز، فبعد كل ما تقدم في المقطع السابق من حثّ لهم على التجاوز بمراتبه الثلاث، جاء هذا المقطع ليذكّرهم بأنّ ربهم الذي يدعوهم إلى هذا الخلق الرفيع متّصف منذ الأزل، قبل خلق الخلق، بكونه غفورًا رحيمًا، فمن الحريّ بالمؤمنين جميعًا أن يتصفوا بما حثّتهم الآية عليه من تجاوز عن الآخرين - لا سيما الأزواج والأولاد - كي ينعم الجميع بحياة اجتماعية رغيدة وجميلة وخالية من المنغصات.

الوجه الآخر: أن يتذكر المؤمنون دومًا أنّ الله سبحانه هو الذي سيكافئهم ويجزيهم خيرًا على تجاوزهم عن الآخرين، وفي هذا حثّ عظيم لهم على الاستزادة من هذا الخلق الجميل والإكثار من ممارسته وتطبيقه في تعاملاتهم مع غيرهم.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

والأجر الإلهي هو، بلا ريب، أعظم وأجزل. وفي الآية إشارة جميلة إلى هذا، فإذا كانت المغفرة هي أعلى مراتب ما أتى به المؤمنون، فإنّ ربهم «غفور» أيضًا، والمغفرة هي الستر، وهو بعد ذلك «رحيم». أعدّ لهم رحمته الخاصة التي سيتغمدهم بها ويجعلها سبيلًا لهم إلى رضوانه وجنانه والقرب منه، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[١].

(١) قصار الجمل ١: ٢٤٧.

٨ - الآيات في مقابل الماديات

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾[1].

تعرض الآيتان الشريفتان لموقف من مواقف كفار قريش من النبي ﷺ والمؤمنين معه، وتتوليان الرد عليهم. فهؤلاء كانوا إذا تُليت عليهم الآيات الإلهية البيّنة - وهي إما الآيات القرآنية على قول، وإما الدلائل والبراهين على وجود الخالق وتوحيده على قول آخر - أثاروا أمام المؤمنين سؤالًا: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، وإنما كانوا يختارون صيغة الاستفهام لا الإخبار في عرض مرادهم لكي يُظهروا ويدّعوا

(١) سورة مريم، الآيتان: ٧٣، ٧٤.

أنّ القضية واضحة لا لبس فيها، ولا يمكن إنكارها بحال، فكأنهم يطلبون من المؤمنين الجواب الواضح المعروف سلفًا عن سؤالهم.

خلاصة ما أراد الكافرون بيانه هو أنّ وضعنا المادي أفضل من وضعكم أيها المؤمنون، فنحن أسعد في حياتنا، فلا بد أن نكون على الحق؛ لذا سألوا: أفريقنا أم فريقكم خير في مقامه؟ والمقام اسم مكان من القيام أو الإقامة، والمراد هنا المسكن، وأي فريق منهما هو أحسن نديًا؟ و«نديًا» هو المجلس، وقيل خصوص مجلس المشاورة وهو النادي، ومنه «دار الندوة» المعروفة بمكة.

هذا المنطلق الغريب الذي أثاروه بسؤالهم، كان لا بد للقرآن الكريم من أن يردّه ويبيّن زيفه وخطأه؛ لذا جاءت الآية الأخيرة من الآيتين لتقول: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾، هل يظنون حقًا أنّ الأفضلية المادية المرتبطة بنعيم هذه الدنيا تعني الكون على الحق والقرب من الرب بالضرورة؟ ما بالهم، إذًا، لا يرجعون إلى تاريخ الأمم التي تقدّمتهم زمانًا ليتأملوا كم قرنًا - والقرن بمعنى الناس المقترنين في زمان واحد - قد أهلكنا فيما مضى؟ إنها قرون

كثيرة من أناس كانوا أحسن أثاثًا ورئيًا، والأثاث هو متاع البيوت، والرئي هو ما رُئي وشوهد من المناظر. وفي تفسير القمي: «عني به الثياب والأكل والشرب، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: الأثاث المتاع، وأما رئيًا فالجمال والمنظر الحسن»[١].

إنّ الآيتين الكريمتين لتفتحان أمامنا آفاقًا:

الأفق الأول:

الإفلاس الفكري يقود أصحابه دومًا إلى تجنب مقابلة الفكر السليم والهروب من أمامه، واللجوء بدلًا من ذلك إلى المغالطات والسخرية ومنطق القوة. هؤلاء الكافرون الذين تتحدث عنهم الآيتان لم تكن لديهم الجرأة على مواجهة الآيات الإلهية البيّنة - قرآنيةً كانت أم عقليةً - نظرًا لوثوقهم بخوائهم المعرفي وفقرهم الاستدلالي بإزائها؛ لذا اختاروا التعمية على أنفسهم وعلى غيرهم بمغالطاتهم الهشّة، إذ زعموا أنّ الرفاه المادي في الحياة الدنيوية يستدعي الكون على الحق ويستلزمه، وصاروا يسخرون من المؤمنين حين

(١) تفسير القمي ٢: ٥٢.

وجدوهم ضعيفي الحالة المادية ومحدودي الإمكانات الدنيوية.

لقد نقل لنا التاريخ صورًا ومشاهد متعددة لهذا المسلك الرديء الذي كان الكفار يسلكونه قديمًا مع المؤمنين، فمن ذلك مثلًا ما روي من أنّ خباب بن الأرتّ ذهب، بعد إسلامه، إلى العاص بن وائل السهمي ليطالبه بما يستحقه عليه من مال بإزاء عمله لديه في زمن كفره، فسأله العاص: أوَ لستم تزعمون أنّ في الجنة ذهبًا وفضة وحريرًا؟ قال خباب: بلى، فقال: فأخّرني حتى أقضيك في الجنة، استهزاءً[1].

والحقّ أنّ هذا كله ناتج من الركون إلى وساوس الشيطان واتّباع هوى النفس، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «هلك من أضلّه الهوى واستقاده الشيطان إلى سبيل العمى»[2].

وليس ببعيد عن هذا، بل هو منه بسبب وثيق، ما نجده في عصرنا من لجوء الطغاة والظالمين إلى مصادرة حريات التعبير والوقوف بوجه الفكر الحر ومنع الناس من إبراز أفكارهم بالقوة والبطش. كل ذلك ناجم عن الفقر الفكري لدى أولئك

(١) أسباب النزول، الواحدي النيسابوري، ص ٢١٢.
(٢) ميزان الحكمة ١٠: ٣٥٦.

الذين لا يتقبلون الفكر ولا يرتضون من يريد أن يفكر وينشر نتائج فكره للآخرين.

الأفق الثاني:

تفتح لنا الآيتان أفقًا مهمًا جدًا يرتبط بضرورة الانتباه للنيّات والدوافع الحقيقية، وذلك بناءً على رأي ذكره بعض المفسرين فيما يرتبط بنوع اللام الموجودة في: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فالرأي الذي يتبنّاه أغلب المفسرين هو أنّ هذه اللام هي لام التعدية أو لام التبليغ، الغرض منها تعدية الفعل اللازم «قال» إلى المخاطبين (الذين آمنوا). لكنّ هناك رأيًا آخر مال إليه بعض المفسرين، ذاهبين إلى أنّ اللام هنا هي للتعليل، والمعنى أنّ الكافرين قالوا ما قالوه لأجل الذين آمنوا، أي لأجل إغوائهم.

إنهم - على هذا التفسير - يخفون نيّاتهم الحقيقية ولا يظهرونها للمؤمنين، بل يتظاهرون أمامهم بأنهم يحاورونهم ويناقشونهم بغيةَ الوصول إلى الحق والظفر به. وهذه حالة يواجهها المؤمنون في كل زمان ومكان، فما أكثر ما ترتفع هذه الأيام الأصوات من كل حدب وصوب منادية بدعوات تحمل ظاهرًا خلّابًا يتعلق بحقوق الإنسان تارة، وبمكافحة الإرهاب

تارة ثانية، وبالديمقراطية وتحرير المرأة وتجديد الدين تارة أخرى، ويدّعي أصحابها أنّهم مخلصون لنا، ولا يريدون من كل مساعيهم سوى تحقيق الخير والسعادة والتقدم لمجتمعاتنا، لكن الأيام كفيلة بفضح مزاعم كثير منهم وإبراز زيفها والكشف عن النيات الخبيثة الحقيقية التي تحرّكها وتقودها.

النيّة الفاسدة السيئة خطر لا بد لنا من أن نحذره ونتّقي نتائجه، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «إذا فسدت النية وقعت البليّة»[١]. صحيح أنّ النية موطنها القلب، وليس يمكن الاطّلاع على دفائن القلوب إلا لخالقها، لكن من الصحيح أيضًا أنّ هذه النية لها آثارها وشواهدها التي يمكن الاستدلال من خلالها عليها، مثلما قال الإمام علي عليه السلام أيضًا: «ما أضمر أحد شيئًا إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه»[٢].

الأفق الثالث:

تكشف لنا الآيتان الكريمتان - مثلما تفعل آيات أخرى

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٢٨٨.
(٢) نهج البلاغة، طبعة الشيخ محمد عبده، ٤: ٤١٤.

في مواضع مختلفة من القرآن الكريم - عن المقياس المادي للسعادة في أنظار هؤلاء الكافرين، فالسعادة عندهم تتلخص في جمال المساكن وحسن المجالس وجودة الأثاث والبهرجة المادية الظاهرية؛ لذا يعدّون أنفسهم أسعد وأقرب إلى الله تعالى ما داموا أكثر امتلاكًا لهذه الأشياء، فهذه وحدها هي النعم الحقيقية المهمة التي على أساسها يكون التفاوت بين بني البشر.

وليس من المستغرب أن تكون هذه النظرة القاصرة موجودة عند هؤلاء الكافرين، نظرًا لعدم إيمانهم بأهمية الجوانب غير المادية في الحياة انطلاقًا من عدم إيمانهم بالمعاد، لكن لا يكاد العجب ينقضي من وجود مثل هذه النظرة عند الناس المؤمنين، الذين تراهم - على الرغم من إيمانهم بالله وأنبيائه والمعاد - يجعلون للنعم المادية المقام الأسنى، وربما الأوحد، في حياتهم وسعادتهم، فهم يتخيلون أنفسهم سعداء إن كثرت عندهم هذه النعم، ويشعرون بكل التعاسة والبؤس إن غاب بعضها من حوزتهم أو قلّ، دون أن يعيروا أدنى اهتمام للنعم المعنوية والروحية، كنعمة الإسلام، والهداية، والصحة، والتوفيق الإلهي، والأمن، وغيرها.

هؤلاء هم الذين قال عنهم الحبيب المصطفى محمد ﷺ: «من لم يعرف الله عليه نعمة إلا في مطعم أو مشرب قصر علمه، ودنا عذابه»[١].

والسبب الذي يجعل هؤلاء هكذا، فلا يعيرون أهمية إلا للنعم الدنيوية الزائلة، هو تعلّق قلوبهم الشديد بهذه الدنيا، فهي همّهم الوحيد، ومناط انشغالهم النفسي والجسدي. ومن كانت هذه حالته، لن يعير النعم الأخرى أي اهتمام، وسيجرّ على نفسه، بذلك، الخسران المبين، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «من كانت الدنيا همّه، طال يوم القيامة شقاؤه وغمّه»[٢].

الأفق الأخير:

يحرص القرآن الكريم في آيات متعددة - منها هاتان الآيتان - على الدعوة إلى الاعتبار بالتاريخ واستفادة الدروس منه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾.

نعم، فالعاقل يستفيد من تجارب السابقين، ويتخذ من

(١) ميزان الحكمة ١٠: ١١٢.
(٢) نفسه ١٠: ٣٧٠.

إيجابياتهم وسلبياتهم عظاتٍ وعبرًا له؛ لأنه يعي جيدًا حقيقة كون الأحداث نفسها قد تتكرر، وإنْ في صور وتفصيلات مغايرة، لكن الجوهر والأساس يظل نفسه. وهي الحقيقة التي نبّه عليها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إذ قال: «استدلّ على ما لم يكن بما قد كان، فإنّ الأمور أشباه»[١]، وقال أيضًا: «العاقل من وعظته التجارب»[٢].

(١) الحياة، محمد رضا الحكيمي وصاحباه، ١: ١٠١.
(٢) تحف العقول عن آل الرسول، الشيخ الحسن بن شعبة الحراني، ص ٦٢.

٩ - زيادة الإيمان بالتخويف

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1].

ربط المفسرون هذه الآية الكريمة والآيات التي وردت في سياقها - في أشهر الأقوال - بغزوة «حمراء الأسد» بعد معركة أحد، فقد قرر جيش الكفار الراجع إلى مكة بقيادة أبي سفيان أن يعود لاستئصال المسلمين وقتل النبي ﷺ، فلمّا علم النبي ﷺ بذلك استنفر المسلمين الذين شهدوا أحدًا - لا سيما الجرحى منهم - للخروج، فما كان من بعض ضعاف النفوس إلا أن عملوا على تخويفهم من قوة الكافرين وحثّهم

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

على عدم الخروج لقتالهم من جديد، لكنّ المسلمين خرجوا، فخاف أبو سفيان وتراجع عن قرار القتال.

تجأر الآية الشريفة بالإشادة بهؤلاء المسلمين الذين جاء إليهم الناس لتثبيطهم، وكلمة «الناس» الأولى يراد بها هؤلاء المثبّطون المخذّلون، وقد قيل إنّ المراد جمع من عبد قيس، كما قيل أيضًا إنّ المراد رجل واحد هو نعيم بن مسعود، وليس في اللغة العربية ما يمنع من التعبير عن المفرد بلفظ الجمع لغرض بلاغي. وأيًا كان المراد فالمهم في المقام أنّ هؤلاء المثبّطين قالوا للمسلمين: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾، وكلمة «الناس» الأخرى هذه يراد بها الكفار المشركون، فالمقصود من كلمة «الناس» هنا هو غير المقصود من الكلمة نفسها هناك، واتحاد التعبير فيه إشارة إلى أنّ ضرر هؤلاء المثبّطين لا يقلّ خطورةً وسوءًا عن ضرر الكفار المحاربين.

محل الإشادة بالمسلمين هو أنّ التخويف الذي حصل ما كان له من أثر فيهم سوى زيادة إيمانهم، وتمسكهم بربهم وتوكلهم عليه. وقد ذكر المفسرون لزيادة الإيمان بالتخويف أسبابًا، أهمها:

١ - كان رسول الله ﷺ قد أخبرهم من قبل بما سيجري، فحدوث التخويف كان تصديقًا لهذا الذي كانوا يعرفونه؛ لذا زادهم إيمانًا بصحة ما هم عليه.

٢ - من طبع الإنسان، كل إنسان، أنه إذا مُنع من شيء محبوب لديه، مع عدم حسن ظنه بمن يمنعه، فإنّ أثر هذا المنع يكون عكسيًا، أي يزيد الإنسانَ تمسكًا بما لديه. والمسلمون كانوا يُمنعون من التمسك بدينهم وأوامر نبيّهم، فزادهم هذا المنع تمسكًا وإخلاصًا.

٣ - أثر إيمان الإنسان بهدف معيّن أنْ يشحذ كل قواه وطاقاته للدفاع عن ذلك الهدف والسير نحوه، ولا شك أنّ هؤلاء المسلمين الأوائل كانوا على درجة رفيعة من الإيمان بالأهداف السامية التي يقودهم إليها خير الخلق وسيد الرسل محمد ﷺ.

إنّ الآية الشريفة لتحمل لنا مجموعة من الرسائل المهمة التي نقرؤها فيما يأتي:

الرسالة الأولى:

علينا التنبّه على أنْ ليس كل ما يبدو لنا في ظاهره نصحًا هو نصح في الحقيقة، فثمة أناس قد يتظاهرون بأنهم يريدون

لنا الخير ويسعون إلى تحقيق ما فيه مصلحتنا، فيوجّهون لنا نصائحهم المخلصة، لكنهم في الواقع أبعد ما يكونون عمّا يدّعون، فهم لا يبتغون سوى تحقيق مصالحهم والوصول إلى منافعهم الخاصة، وما التظاهر بالنصح سوى غش وخداع، فليس ثمة من نصح حقيقي وصادق، وفي هذا قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «من غشّ المسلمين بمشورة فقد برئتُ منه»[١]. وفي الآية الشريفة مثال على نصيحة وُجهت للمسلمين، لكن ما كان يراد من ورائها الخير الحقيقي لهم.

إنّ النصيحة الحقّة التي يريدها الإسلام أن تنتشر في المجتمع المسلم هي تلك التي لا يراد منها إلا الخير للطرف الذي تُقدّم إليه؛ لذا حثّت الأحاديث الشريفة على جعل ذلك الطرف في منزلة أنفسنا، فلا نقدّم له من نصح إلا ما نرتضيه ونريده لأنفسنا، فقد روي عن صفوة البشر محمد صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «لينصح الرجل منكم أخاه كنصيحته لنفسه»[٢].

(١) سفينة البحار، الشيخ عباس القمي، ٨: ٢٥٣.
(٢) نفسه ٨: ٢٥٤.

الرسالة الثانية:

أسلوب التخويف هو من أكثر الأساليب شيوعًا عند أولئك الذين يريدون إبعاد المحقّين عن طريق الحق، ويسعون إلى منع المهتدين من مواصلة السير في سبيل الهدى والرشاد، وهو الأسلوب الذي حدّثتنا الآية الكريمة عنه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾.

وليس اللجوء إلى هذا الأسلوب من جهة هؤلاء مستغربًا، بعد أن كان هذا وما زال أسلوبًا أثيرًا لدى الشيطان الرجيم نفسه: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[1].

ولمّا كان هذا هكذا، فقد تعاضدت النصوص الشرعية على الدعوة إلى جعل الخوف مختصًا بالرب سبحانه، دون سواه، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «المؤمن لا يخاف غير الله، ولا يقول عليه إلا الحقّ»[2].

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.
(٢) ميزان الحكمة ٣: ١٨٨.

الرسالة الثالثة:

قد يسعى بعض الناس إلى استدراجنا إلى نتائج خاطئة اعتمادًا على مقدمات صحيحة، مثلما فعل هؤلاء المثبّطون المذكورون في الآية، فقد قالوا للمسلمين: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾، وهذه المقدمة صادقة صحيحة، لكنهم ما لبثوا أن رتّبوا عليها نتيجةً عبّروا عنها بقولهم: ﴿فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾، وهي نتيجة لا تتوافق إلا مع مبانيهم الخاصة، أما في أنظار المؤمنين الحقيقيين فهي نتيجة غير صحيحة؛ لأنّ جمع الجموع ضدهم لا يعني أنّ عليهم أن يخشوا غير الله تعالى.

وهكذا قد يفعل بعضٌ في الحياة الاجتماعية، فيأتيك بمقدمة صحيحة صادقة، كأنْ يقول لك مثلًا: «إنّ فلانًا قد تحدث عنك بسوء». ويسبق إلى ظنك أنه سيرتب على هذه المقدمة نتيجة صحيحة، لكن إذا به يفجؤك بقوله: «ففلان يعاديك، فعليك أيضًا أن تعاديه!» مع أنّ حديث السوء لا يعني بالضرورة العداوة، فقد يكون ناتجًا من دوافع أخرى ليست لها علاقة بالعداوات والضغائن.

إنّ مثل هذه الطرائق من التعامل تقتضي أن ينظر الإنسان منّا دومًا إلى النتائج، أن يفكر فيها قبل تصديق المقدمات

المعروضة عليه، وقبل اتخاذ قرار ترتيب الأثر عليها؛ كي لا يقع في وهدة النتائج الخطيرة الخاطئة التي يراد له أن يقع فيها. روي أنّ رجلًا أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أوصني، فقال له: فهل أنت مستوصٍ إن أوصيتك؟ - حتى قال ذلك ثلاثًا في كلها يقول الرجل: نعم يا رسول الله - فقال له رسول الله ﷺ: «فإنّي أوصيك إذا أنت هممت بأمر فتدبّر عاقبته، فإن يك رشدًا فامضه، وإن يك غيًا فانتهِ عنه»[1].

وورد عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «من نظر في العواقب سلم من النوائب، من فكّر في العواقب أمن المعاطب».

الرسالة الرابعة:

التعبير بكلمة واحدة هي «الناس» في موضعين - مع كون المراد في كل موضع منهما مختلفًا عن المراد في الآخر كما تقدّم بيانه - يشي بأنّ الضرر الذي قد تحدثه الأقوال والكلمات قد لا يقلّ عن ذلك الضرر الذي يريد أعداء الأمة إلحاقه بها: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾.

(١) ميزان الحكمة ٢: ٣٨٥.

هذه الحقيقة التي يبيّنها القرآن الكريم تدعونا إلى أخذ كل الحيطة والحذر فيما نقوله ونكتبه، وفيما ننشره ونروّجه من أقوال وكتابات للآخرين؛ لكيلا يتخذنا أعداء الأمة والمتربصون بها شرًا وسيلة لترويج إشاعاتهم ونشر دعاياتهم المضلّلة وأكاذيبهم الإعلامية، فنكون بذلك محققين لأهدافهم وطموحاتهم من حيث لا ندري.

إنّ من الظواهر المؤسفة في زماننا هذا الذي انتشرت فيه وسائل التواصل الاجتماعي وصار فيه تناقل الأخبار والصور والأفلام من أيسر الأمور، أنّك تجد أناسًا كثيرين لا يستشعرون مسؤوليتهم فيما ينشرونه ويوزعونه بين الناس، فتراهم ينشرون كل ما يقع في أيديهم، حقًا كان أم باطلًا، دونما تدبّر في نتائج هذا النشر وآثاره التي قد تكون وخيمة جدًا في بعض الحالات.

لقد دعتنا النصوص الشرعية إلى تحمّل مسؤولياتنا في هذا المجال، فنحن مسؤولون عن كل النتائج السلبية الخطيرة التي قد يقود إليها نشرنا غير الواعي وغير المدروس للأخبار والمعلومات المتعلقة بالآخرين، وليس كوننا متأكدين من صدقها عذرًا مسوّغًا للنشر؛ لأنّ نشر الأخبار الصادقة أيضًا قد يقود إلى نتائج وآثار مرفوضة، فعن الإمام محمد الباقر عليه السلام

أنه قال: «يُحشر العبد يوم القيامة وما نَدِيَ دمًا، فيُدفع إليه شبه المحجمة أو فوق ذلك، فيقال له: هذا سهمك من دم فلان، فيقول: يا رب، إنك لتعلم أنك قبضتني وما سفكت دمًا، فيقول: بلى، سمعتَ من فلان رواية كذا وكذا، فرويتها عليه، فنُقلت حتى صارت إلى فلان الجبار فقتله عليها، وهذا سهمك من دمه»(١).

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه تلا هذه الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ فقال: «والله ما قتلوهم بأيديهم، ولا ضربوهم بأسيافهم، ولكنهم سمعوا أحاديثهم فأذاعوها، فأُخذوا عليها فقُتلوا، فصار قتلًا واعتداءً ومعصيةً»(٢).

الرسالة الخامسة:

السبب الثاني من الأسباب التي تقدم نقلها عن المفسرين في مقام تعليل زيادة الإيمان بالتخويف له تطبيقات وتجليات

(١) أصول الكافي ٢: ٢١٠.
(٢) نفسه، والآية هي ٦١ من سورة البقرة.

كثيرة في الحياة الاجتماعية؛ لذا ينبغي لنا أن نتوقف عنده قليلًا ونعيره بعض الاهتمام الذي يستحقه، فالنفوس البشرية مجبولة على الانجذاب للشيء الذي تُمنع منه حين لا تُحسن الظن بمن يمنعها من ذلك الشيء المحبوب.

من هذه التطبيقات الكثيرة مثلًا تعاملنا مع أولادنا، فكثيرون من الآباء والأمهات يشتكون من أنّ أولادهم كثيرًا ما يعاندونهم، فلا يستجيبون لما يطلبونه منهم، ويتمردون على نواهيهم فيرتكبون ما نُهوا عنه، دون أن يعيروا أي اهتمام لهم أو لما يريدون.

لسنا هنا بصدد تناول هذه الظاهرة من كل جوانبها والبحث عن كل أسبابها، فهذا بحث مفصّل متروك لموضعه، لكن المراد أن نشير إلى أنّ من أهم أسباب الظاهرة عدم قدرة الآباء والأمهات على الحصول على ثقة أولادهم بأنهم لا يريدون لهم إلا خيرًا، وعجزهم عن زرع حسن الظن بهم في نفوس هؤلاء الأولاد (ذكورًا كانوا أم إناثًا). فالاكتفاء بإصدار الأوامر والنواهي دونما توفير أرضية الثقة وحسن الظن والاطمئنان في المخاطبين لن تكون نتيجته المنتظرة شيئًا سوى الإعراض والإهمال وربما التمرد والعصيان.

لقد علّمتنا الأحاديث الشريفة الواردة عن النبي وأهل بيته المعصومين (صلوات الله عليهم) وسائل متعددة لزرع الثقة وحسن الظن في نفوس أولادنا، منها إظهار المحبة لهم، والتوسعة عليهم، وحسن معاملتهم، والتصابي في محضرهم، والعدالة فيما بينهم. وهذه النقطة الأخيرة بالغة الأهمية، فقد ورد عن النعمان بن بشير أنه قال: «أعطاني أبي عطيّة فقالت أمي عميرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشهد النبي ﷺ، فأتى النبي فقال: إني أعطيت ابني من عمرة عطيّة فأمرتني أن أُشهدك، فقال: أعطيت كل ولدك مثل هذا؟ قال: لا، قال: فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم، لا أشهد على جور»[١].

ولا تتوقف دعوة الإسلام إلى العدالة بين الأولاد عند العطاءات المادية وحدها، بل تتجاوزها لتشمل العطاءات المعنوية أيضًا، كمظاهر المحبة وما يتعلق بها، فقد روي أنّ رسول الله ﷺ أبصر رجلًا له ولدان فقبّل أحدهما وترك الآخر، فقال ﷺ: «فهلّا واسيت بينهما؟»[٢] وعنه ﷺ أنه قال: «إنّ الله يحب أن تعدلوا بين أولادكم حتى في القبل»[٣].

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٧٠٧.
(٢) نفسه ١٠: ٧٠٧.
(٣) نفسه.

الرسالة الأخيرة:

ليس يمكن للأمة الإسلامية أن تعود إلى سالف قوّتها وقديم عزّها وشأنها بين الأمم إلا بتوافر التوكل على الله تعالى في نفوس أبنائها: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

إنّ التوكل على الله سبحانه معناه العميق ماثل في أن يرتبط المؤمن بكل وجدانه وكيانه بالمصدر الحقيقي لكل قوة وعزة وكمال، فيعطيه هذا الارتباط الإحساس الداخلي بالقوة والشأن، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»[١].

ليس التوكل - بناءً على هذا - ادّعاءً يُدّعى، أو شعارًا يُرفع، بل هو حقيقة مرتبطة بالإيمان الحقيقي ومتفرعة عنه، ولا بد لها من أن تتجلى في امتلاء القلب ثقةً بالله تعالى، وتجرّده من كل خوف ممّن سواه، فعن الحسن بن الجهم أنه قال: «سألت الرضا عليه السلام فقلت له: جعلت فداك، ما حد التوكل؟ فقال لي: أن لا تخاف مع الله أحدًا»[٢].

---

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٦٨١.

(٢) سفينة البحار ٨: ٥٧٣.

١٠ - وسائل لصرف الآخرين عن الحق

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾[1].

هذه القولة التي حكتها الآيتان الكريمتان موجّهة من بعض كفار قريش إلى بعض، أو من قادتهم إلى الأتباع، وهي تتضمن استفهامين: فأما الاستفهام الأول ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ فهو وارد مورد الاستهزاء؛ ولهذا جاءت كلمة «رجل» نكرة للدلالة على التحقير والاستصغار، والمراد بها رسول الله محمد ﷺ. فالمتحدثون بهذا الكلام يحدّثون مخاطبيهم بكل

(١) سورة سبأ، الآيتان: ٧، ٨.

سخرية عن عقيدة المعاد وأنّ هذا الذي يدّعي النبوة كذبًا - في أنظارهم - يستصغر عقولهم ويستهين بها حينما يحدّثهم عن رجوعهم أحياء إلى الدنيا مرة أخرى بعد أن تكون أبدانهم قد تمزقت تمزقًا كاملًا بعد موتهم وتوزّعت أجزاء أجسامهم في كل مكان.

وأما الاستفهام الآخر ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ فهو للتعجب والإنكار، وهو من تتمة كلام أولئك الكافرين يتعجبون فيه من حال النبي ﷺ وينكرون عليه ما يدعوهم إليه، فهم يتساءلون: أيتعمد هذا الرجل الافتراء كذبًا على الله تعالى مع كونه سليم العقل أم هو مصاب بالجنون فلا يعرف ما يفعل؟

إنّ هذا المقطع القرآني - على وجازته - يتضمن مجموعة من الوسائل التي كان الكافرون في زمن النبي الأكرم محمد ﷺ يتّبعونها بغيةَ الحيلولة بين الناس والهداية، ولأجل صرفهم عن الحق واتّباعه. ولمّا كان يمكن لكل من يريد الوقوف بوجه الحق، في أي زمان ومكان، أن يتّبع الوسائل نفسها، كان من المهم التدبّر فيها والتعرّف إلى حقيقتها:

الوسيلة الأولى: الاستهزاء والسخرية

تقدّم بيان أنّ الاستفهام الأول المذكور هو بغرض السخرية، وينبغي أن نلحظ أيضًا أنّ السياق كله هو، في الأساس، سياق استهزاء بالنبي ﷺ لأجل إسقاطه من الأعين وتقليل شأنه كيما يستصغره الآخرون ويبتعدوا عمّا يدعوهم إليه، وهذه حيلة من لا حجة لديه، فلا يمكنه مقارعة الدليل بالدليل والبرهان بالبرهان، فتراه يلجأ إلى هذه الأساليب المنحطّة الرخيصة.

لقد حارب الإسلام السخرية ودعا المؤمنين به إلى اجتناب هذه الوسيلة في كل شؤونهم، فليست بهم إليها حاجة بعد وجود كل البراهين والدلائل والحقائق الساطعة التي يمكنهم أن يعتمدوا عليها في محاوراتهم مع غيرهم ودعوتهم إلى الحق. وليست السخرية مقبولة، من باب أولى، في تعامل المؤمنين بعضهم مع بعض داخل المجتمع المؤمن، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾[1].

(١) سورة الحجرات، الآية: ١١.

وليس ثمة من شك في كون السخرية ضربًا من ضروب الإذلال للطرف المقابل، وإذلال المؤمن عدّه الإسلام شيئًا عظيمًا جدًا حتى استحق صاحبه أن يُعدّ محاربًا لله تعالى، ففي الحديث عن الرسول الأعظم ﷺ: «قال الله تعالى: من استذلّ عبدي المؤمن فقد بارزني بالمحاربة»[١]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «من حقّر مؤمنًا، مسكينًا أو غير مسكين، لم يزل الله حاقرًا له ماقتًا حتى يرجع عن محقرته إياه»[٢].

الوسيلة الثانية: التبئير

المقصود بـ «التبئير» أن يعمد أحد المتحاورين، أو كلاهما، إلى التركيز التام على نقطة أو نقاط معيّنة واردة عند الطرف المقابل وتسليط كل الضوء عليها دون غيرها، نظرًا لكون هذه النقطة أو النقاط المعيّنة غير متقبلة أو فيها ما يدعو إلى التوقف أو التشكك في صدق صاحبها. هؤلاء الكافرون المتحدثون أعرضوا عن كل ما جاءهم النبي ﷺ به من عقائد وتشريعات وأخلاق تميل إليها النفوس البشرية التائقة إلى السمو والكمال، وتجد فيها خلاصها من التخلف والرجعية

(١) قصار الجمل ٢: ٣٣٦.
(٢) نفسه.

ووأد الفكر، وسلّطوا كل اهتمامهم على قضية المعاد الجسماني وحدها! وهذه القضية وإنْ كانت ثابتة بالأدلة العقلية القطعية، لكنها لم تكن متقبّلة عند المخاطبين بعد. وهكذا استغل المتحدثون هذه القضية بالذات؛ كي يصدموا المخاطبين بما لا قِبَل لهم به، فيقودهم ذلك إلى الإعراض عن النبي والدين الجديد.

إنّ وسيلة التبئير هذه لا تخطئها العين والأذن في كثير من النقاشات والجدالات التي تحتدم بين الأطراف ذوات التوجهات المختلفة، فتجد كل طرف يحاول جاهدًا أن يقتنص لدى الطرف المقابل شيئًا معيّنًا ليعيّره به، ويتخذ منه ذريعة ووسيلة لصرف وجوه الناس عنه، متناسيًا عمدًا كل الأمور الإيجابية التي يمتلكها، وهذه - في الواقع - وسيلة متنافية مع الموضوعية والأمانة العلمية، وقد تُخفي وراءها قدرًا غير قليل من سوء السريرة. روي أنّ أعرابيًا قال لرسول الله ﷺ: أوصني، فقال: «عليك بتقوى الله، فإنْ امرؤ عيّرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيّره بشيء تعلمه فيه، يكن وباله عليه وأجره لك»[1].

(١) ميزان الحكمة ٧: ١٥٥.

الوسيلة الثالثة: المبالغة

إذا كانت الوسيلة السابقة تتعلق بانتقاء بؤرة معيّنة لتسليط الضوء عليها دون غيرها، فإنّ هناك وسيلة أخرى غالبًا ما تنضمّ إلى تلك الوسيلة ليكون تأثيرهما مجتمعتين مضاعفًا في تحقيق المقصود وهو صرف الناس عن الحق. هذه الوسيلة هي تضخيم الواقع وإبرازه في صورة مهولة ومخيفة ترعب الناظرين أو تسبب عندهم النفور والإعراض، من طريق اللجوء إلى المبالغة في الوصف والتصوير.

نلاحظ أنّ الكافرين حين أرادوا تركيز الاهتمام على قضية المعاد الجسماني دون غيرها، لم يقولوا لمخاطبيهم ببساطة: إنّ هذا الرجل يقول إنكم ستُبعثون بعد موتكم، مثلًا، بل عمدوا إلى صنع صورة بيانية شديدة المبالغة والقوّة لتكون عظيمة التأثير: ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وإنّ نظرة واحدة إلى المفردات التي اختاروها وطريقتهم في صياغتها وجمعها مع بعضها لتكفي للتدليل على ذلك، فلنلاحظ فعل الإنباء مع تشديده «ينبّئكم». ولنتأمل صورة التمزيق القاسية التي تزداد قسوةً بالبناء للمجهول ووجود التشديد «مُزّقتم». ولا تقف عند هذا الحد حتى يضاف إليها

«كل ممزّق»! ولا تفوتنا أيضًا الجملة الأخيرة المبتدئة بحرف التوكيد «إنّ» وبعده اللام المزحلقة المؤكدة، وأخيرًا وصف الخلق بكونه جديدًا مما يكرّس حالة الاستبعاد والنفور عند المتلقين.

إنّ هذه الوسيلة معتمدة بكثرة عند انعقاد الحوارات والجدالات في المجالات المتنوعة، فيسعى كل طرف إلى تضخيم العيوب التي يجدها عند الآخر وعرضها بطريقة فيها مبالغة متعمدة تهدف إلى تشويه الصورة وجعلها مقززة منفرة للآخرين، في حين أنّ الطرف نفسه يسعى إلى تجميل صورته وإخفاء عيوبه أو التقليل من شأنها في أقل تقدير؛ كيما يكتسب ثقة الآخرين ويجتذبهم إلى ناحيته. وهذا هو ما حذّر منه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إذ قال: «إيّاك أن تكون على الناس طاعنًا، ولنفسك مداهنًا، فتعظم عليك الحوبة وتُحرم المثوبة»[1].

الوسيلة الرابعة: إلغاء احتمال الصحة

تتجلى هذه الوسيلة في كون هؤلاء الكافرين لم يثيروا أمام مخاطبيهم سوى احتمالين اثنين في حق النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فهو إما

(١) ميزان الحكمة ٧: ١٤٢.

يفتري الكذب متعمدًا وإما مجنون لا يعرف ما يقول: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾، دون أن يتعرضوا على الإطلاق لاحتمال مختلف - مهما كان ضعيفًا - وهو احتمال أن يكون الرجل صادقًا وعاقلًا، فهذا الاحتمال ملغيّ تمامًا من الحسبان! ومن ثَمّ فليس من المعقول المتقبّل أن تفكروا - يا أيها المخاطبون - في تصديقه واتّباعه.

إنّ كثيرًا من المشكلات الاجتماعية لتصل إلى درجات كبيرة من التعقيد والتعمق ما كانت لتصل إليها لولا إصرار كل طرف على كونه دائمًا محقًا، وعلى إلغاء احتمال الصحة عند الطرف المقابل، فالحق معي دومًا، وليس بعد الحق إلا الضلال. وتظهر هذه الحالة بصورة جليّة جدًا حين يتدخل أهالي الزوجين في المشكلات التي قد تطرأ في حياتهما الزوجية، فترى إذ ذاك أنّ أهل كل طرف يصرّون ابتداءً - دون أن يستمعوا إلى الطرف الآخر مثلما ينبغي - على أنّ ابنهم أو ابنتهم على حق دومًا، ولا يمكن أن يكون الطرف الآخر على حق. ربما لا يصرّحون بذلك، لكن كل تصرفاتهم ومواقفهم وتصريحاتهم تدلّ بما لا يقبل المراء على منطلقهم هذا.

وليس يخفى على أحد أنّ هذه الحالة كاشفة عن عدم

إنصاف الآخرين، فلو أنّ المرء أنصفهم لوضع لهم احتمال الصحة مثلما يضع لنفسه، ولما ألغى احتمال الصحة من أساس في حقهم، وقد روي عن الحبيب المصطفى ﷺ أنه قال: «من واسى الفقير من ماله، وأنصف الناس من نفسه، فذلك المؤمن حقًا»[١].

الوسيلة الأخيرة: مصادرة حق التفكير

فالمتحدثون حينما حصروا حقيقة النبي ﷺ في الاحتمالين المذكورين (كونه كاذبًا أو مجنونًا) أرادوا لمخاطبيهم ألّا يتخطوا في تفكيرهم هذه الدائرة المحدودة، فكأنهم قالوا لهم: نحن توصلنا إلى هذين الاحتمالين دون غيرهما، فخذوا بهما، وليس من حقكم أن تخرجوا خارج دائرتهما. نحن نفكر بالنيابة عنكم، وقد كفيناكم تجشّم عناء التفكير والتحليل!

إنّ هذه الوسيلة وسيلة مفضّلة أثيرة لدى كل الطغاة والمستكبرين الذين يريدون إخضاع الناس لسلطتهم وهيمنتهم دونما نقاش أو اعتراض أو حتى تفكير في النقاش أو

(١) أصول الكافي ٢: ٩٣.

الاعتراض! فهم يريدون أن تظل عقول الناس بأيديهم، يضعون فيها ما شاؤوا، ويمنعونها من التفكير في خارج الحدود التي رسموها. نقل لنا القرآن الكريم هذا عن فرعون، حينما آمن السحرة بموسى عليه السلام، فما كان منه إلا أن خاطبهم قائلًا: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾[1] ليس من حقكم أن تؤمنوا بشيء - مهما كانت الأدلة عليه واضحة أمامكم - إلا بعد إذن مني، فبيدي وحدي حق التفكير، أضعه حيث أريد وأمنعه حيث لا أريد.

ونلاحظ اليوم أنّ العولمة تنطلق من المنطلق نفسه في التعامل مع الشعوب والأجناس المختلفة من البشر، مهما بدا ظاهرها جميلًا ومناديًا بالاعتراف بالآخر وحقه في التعبير عن رأيه؛ لأنّ العولمة تقوم أساسًا على قيادة العالم والبشر صوب المركزية، مركزية القوة العظمى والقطب الأوحد، حيث لا مجال لثقافات الأطراف أن تعيش متحررة، فلا محيص عن انصهارها - اقتصادًا وسياسةً وفكرًا وثقافةً وفي كل المجالات - في المركز الواحد؛ لذا مال باحثون كثيرون إلى أنّ العولمة ليست في حقيقتها سوى «الأمركة». أي جعل العالم كله أمريكيًا!

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٣.

ولماذا نذهب بعيدًا ونحن نمارس مصادرة حق التفكير في بيوتنا، مع أولادنا؟ فكثيرون منّا لا يعطون لأولادهم الحق في أن تكون لهم آراؤهم وأفكارهم الخاصة بهم، تلك التي يكونون فيها مخالفين لما عليه الآباء والأمهات. إننا نريد لهم أن يظلوا صورة لنا، لا يخالفوننا في أية فكرة أو رأي مما نميل إليه نحن، مع أنّ الإمام عليًا أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لا تقسروا أولادكم على آدابكم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم»[١].

ومع أنّ هذه الحالة عندنا تنطلق، في الغالب، من محبتنا لهم وحرصنا عليهم وعلى مصالحهم، فإنّها تكشف أيضًا عن اغترارنا بآرائنا وإعجابنا المَرَضيّ بها، وقد قال علي عليه السلام أيضًا: «الجاهل من انخدع لهواه وغروره»[٢].

(١) قصار الجمل ٢: ٣٢٨.
(٢) ميزان الحكمة ٧: ١٥٥.

١١ - هدى الأنفس وضلال الآخرين

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾(١).

عن ابن عباس أنه قال: «كتب رسول الله ﷺ إلى أهل هجر، وعليهم منذر بن ساوي، يدعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا فليؤدوا الجزية، فلما أتاه الكتاب عرضه على من عنده من العرب واليهود والنصارى والصابئين والمجوس، فأقروا بالجزية وكرهوا الإسلام، وكتب إليه رسول الله ﷺ: أما العرب فلا تقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، وأما أهل الكتاب والمجوس فاقبل منهم الجزية، فلما قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ أسلمت العرب، وأما أهل الكتاب والمجوس فأعطوا

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.

الجزية، فقال منافقو العرب: عجبًا من محمد! يزعم أنّ الله بعثه ليقاتل الناس كافة حتى يسلموا، ولا يقبل الجزية إلا من أهل الكتاب، فلا نراه إلا قبل من مشركي أهل هجر ما ردّ على مشركي العرب، فأنزل الله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ يعني من ضلّ من أهل الكتاب»[١].

فالآية الكريمة - بناءً على هذا - تخاطب الذين آمنوا مطالبةً إياهم بأن يهتموا بأنفسهم ويلزموها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، و«عليكم» اسم فعل بمعنى الزموا، ثم تعقّب على ذلك بقولها: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾، وهذا المقطع ذكر المفسرون فيه أقوالًا، أهمها:

أ - «لا» هنا نافية، والمراد بيان وعد إلهي بأنّ هذه الأمة لن تضلّ بالرجوع إلى الكفر بعد الإيمان.

ب - «لا» نافية، لكن هذا النفي يراد به النهي، أي نهي المؤمنين عن أن يتزعزع إيمانهم ويتضرروا بضلالة أولئك الضالّين، أو نهي المؤمنين عن أن يضرّوا بأنفسهم من شدة حزنهم على عدم إيمان الكفار جميعًا.

---

(١) أسباب النزول، الواحدي النيسابوري، ص ١٤٦.

ث - «لا» ناهية، والنهي هو إما بالمعنى المتقدم، وإما بمعنى نهي المؤمنين عن أن يعدّوا ضلال أولئك ضررًا عليهم. يبقى على أصحاب هذا القول أن يفسّروا لنا رفع الفعل المضارع «يضرّكم» مع كونه مسبوقًا بـ «لا» الناهية التي تقتضي جزمه، وقد أجاب العلامة الطبرسي (أعلى الله مقامه) بكون الضمة على الراء ليست علامة رفع، وإنما هي ضمة إتباع لضمة الضاد[١]. علمًا أنّ هناك قراءة بفتح الراء، وهي تؤيد كون «لا» ناهية، ويكون الفعل مجزومًا بها، ثم جيء بالفتحة تخلّصًا من التقاء الساكنين، أعني الراءين الساكنتين.

وتستدعينا الآية المباركة أن نتوقف عند قضايا:

القضية الأولى: الثبات أمام الاستهزاء

تعامل المنافقون - مثلما قرأنا في الرواية المرتبطة بسبب النزول - مع النبي ﷺ والمؤمنين بقدر غير قليل من الاستهزاء الممتزج بالتشكيك بل التكذيب، حين رأوا أنّ الموقف الشرعي من المشركين العرب كان مختلفًا عنه من غيرهم، لكنّ هذا التعامل لم يؤثر في موقف النبي ﷺ ومن

(١) مجمع البيان، المجلد الثاني، ٧: ٢١٦.

معه، بل ظلوا متمسكين بالحق غير آبهين باستهزاء المستهزئين وتكذيبهم، وهذه هي الاستقامة الحقيقية التي أرادها الله سبحانه: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾[١].

إنّ نقطة الضعف التي يُؤتى منها كثيرون من المؤمنين هي أنهم لا يمتلكون سعة الصدر التي تمكّنهم من استيعاب استهزاء الآخرين بهم، ومقابلتها بالحلم والتجاوز، وليس عندهم من الصبر ما يجعلهم قادرين على مجابهة المصائب التي قد يتسبب فيها غيرهم، فتراهم غافلين عن حديث رسول الله ﷺ: «من أحب السبيل إلى الله جرعتان: جرعة غيظ تردّها بحلم، وجرعة مصيبة تردّها بصبر»[٢]، وقد حثّ أمير المؤمنين علي عليه السلام على أخذ النفس بالصبر على ما عند الناس من جهل، إذ قال: «من ساس نفسه بالصبر على جهل الناس صلح أن يكون سائسًا»[٣].

وتتعمق المشكلة أكثر حين يؤدي عدم تحمّل الاستهزاء إلى التراجع عن الحق والتنازل عن القيم والمبادئ التي لا

(١) سورة الشورى، الآية: ١٥.
(٢) قصار الجمل ١: ٣٦٩- ٣٧٠.
(٣) نفسه ١: ٣٧٠.

يصح التنازل عنها في حال من الأحوال، ربما تخوّفًا من على خطورة ذلك: «الحق أبلج، منزّه عن المحاباة والمراءاة»[١].

القضية الثانية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قيل عن هذه الآية الشريفة التي هي محلّ كلامنا إنها ناسخة لكل الآيات الكريمة الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نظرًا لتنافيها معها؛ لأنها تقول: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، فلا شأن لكم، إذًا، بالآخرين مهما قصّروا عن الحق أو توغّلوا في المعاصي والمنكرات، أي أنكم لستم مطالبين بأمرهم بالمعروف أو نهيهم عن المنكر.

وقد ذكر العلماء والباحثون ردودًا عدّة على هذا الذي قيل، من أهمها:

أ - هذان الواجبان (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ليسا من الواجبات التي يمكن أن نتقبّل احتمال تطرّق النسخ إليها؛ فهما مهمّان جدًا، ولهما من الدين منزلة خاصة سامية، إذ أنهما فرعان من فروع الدين، بل هما من العلامات الفارقة

(١) ميزان الحكمة ٢: ٤٦٤.

التي تميّز هذا الدين وأتباعه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[١].

وفي الروايات الشريفة نجد تأكيدًا قويًا جدًا على ضرورة حضور هذين الواجبين في حياة المؤمن، وخطورة غيابهما، دون أن نجد، في المقابل، أي تجويز للتخلي عنهما أو تساهل في التعامل مع مواردهما. فمن ذلك مثلًا ما روي عن سيد الرسل محمد ﷺ: «إنّ الله ليبغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له، فقيل: وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له؟ قال: الذي لا ينهى عن المنكر»[٢]، وكذلك المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من ترك إنكار المنكر بقلبه ولسانه ويده فهو ميت بين الأحياء»[٣].

ب - اهتمام المؤمن بأن يأمر غيره بالمعروف وينهاه عن المنكر هو جزء من اهتمامه بنفسه؛ لأنّ الاهتمام بالنفس يتضمن الاهتمام بكل ما وجب عليه من تكاليف شرعية، ومنها هذان التكليفان المهمّان. فعلى هذا، لا تكون ثمة منافاة بين

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.
(٢) قصار الجمل ٢: ٢٧٨.
(٣) نفسه.

﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ وأدلة وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ج - هذه الآية الكريمة جاءت في سياق الحديث عن ضلالة أولئك الذين يتمسكون بآبائهم بدلًا من القبول بالحق إذ جاءهم، ففي الآية التي سبقتها مباشرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1]. فالآية محل كلامنا أرادت من المؤمنين ألّا يكونوا كأولئك، فليس بضائرهم إطلاقًا من ضلّ من الناس ما داموا هم مهتدين، ولا علاقة لهذا بقضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبعبارة أخرى: إنّ حديث الآية السالفة عن أولئك المتمسكين بطريق آبائهم لعلّه جعل بعض المؤمنين يتساءلون عن مصير أسلافهم الذين ماتوا على الكفر، وعن مصير من ما زال يتمسك بهم، فجاءتهم الآية المباركة بالجواب، دون أن يكون له أي تعلّق بموضوع الأمر والنهي.

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٤.

القضية الثالثة:

عدم تضرّر المؤمنين بضلال من ضلّ جعلته الآية مشروطًا بشرط كبير ومهم: ﴿إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾، أي إذا توصلتم إلى الهدى قطعًا ولزمتموه طوال حياتكم. وهذا معناه، بمفهوم المخالفة، أنكم إذا لم تكونوا على ثقة كاملة بقدرتكم على التمسك بالهدى طوال مدة بقائكم في الدنيا فإنكم معرّضون للتضرر بضلال الضالّين إذا اقتربتم منهم أو سمحتم لهم بالاقتراب منكم إلى درجة القدرة على التأثير.

إنّ هذا المنطلق القرآني ليحفزنا على أن نتفكر، باهتمام وعمق كافيين، في طبيعة العلاقات التي تربطنا نحن بالناس من حولنا، وكذلك طبيعة علاقات أبنائنا وبناتنا بأصدقائهم وزملائهم؛ ذلك أنّ العلاقات الاجتماعية قد تكون ذات أثر بليغ في الاهتداء أو الضلالة، فرسولنا الأكرم محمد ﷺ قال: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[١]، وقال أيضًا: «الوحدة خير من قرين السوء»[٢].

(١) ميزان الحكمة ٥: ٢٩٧.
(٢) نفسه ٥: ٢٩٩.

وتحدّث الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام عن الأثر السيّء الذي تتركه صحبة الأشرار عادةً في تشبيه تمثيلي رسم لنا صورة بيانية عميقة التأثير، فقال: «صحبة الأشرار تُكسب الشر، كالريح إذا مرّت بالنتن حملت نتنًا»[١].

القضية الأخيرة: الخطاب الاجتماعي

احتمل بعض المفسرين[٢] إمكانية كون الآية المباركة حاملةً خطابًا اجتماعيًا للمجتمع المسلم كله، بما هو وجود اجتماعي، بأن يلزم نفسه، فيثبّت في داخله كل ما من شأنه تقوية روح التقوى وحالة الصلاح والهداية في نفوس أفراده، ويُضعف كل ما من شأنه أن يقودهم إلى الضلال والانحراف، لا أن يقف المجتمع موقف المتفرج غير المبالي بما يجري فيه.

إنّ الفارق واضح بين نوعين من المعاصي: المعاصي الفردية التي يرتكبها أصحابها في نطاقهم الخاص المحدود، والمعاصي العلنية العامة التي يجترحها أصحابها على الملأ ودونما تحرّج من الانتشار والذيوع بين الناس. فهذا النوع

(١) ميزان الحكمة ٥: ٣٠٢.
(٢) منهم صاحب الميزان ٦: ١٦٨.

الأخير لا شك في كونه أخطر وأوخم عاقبةً؛ لأنه في معرض التحول إلى ظاهرة اجتماعية تسري في المجتمع كله سريان النار في الهشيم؛ لذا قال رسول الله ﷺ: «إنّ المعصية إذا عمل بها العبد سرًا لم يضرّ إلا عاملها، فإذا عمل بها علانيةً ولم يغيّر عليه أضرّت بالعامة»[١].

وأكبر عامل يشجع العصاةَ على التجاهر والانفلات العلني في الممارسات المحرمة هو سكوت المجتمع عنهم، فلو أنّ المجتمع - بمؤسساته وأفراده - حرص على الوقوف مانعًا في وجوههم لتغيّر موقفهم، لكنه ربما يميل إلى إيثار الصمت والخلود إلى الدعة فيستجلب على نفسه العقوبة الإلهية، فقد جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام: «ما أقرّ قوم بالمنكر بين أظهرهم لا يغيّرونه إلا أوشك أن يعمّهم الله بعقاب من عنده»[٢].

ولن يكون الوقوف في مواجهة العصاة كافيًا حتى يُشيع المجتمع في داخله كل الوسائل المشجّعة على الخير والداعية إلى التمسك بالدين والتخلّق بالأخلاق الفاضلة، فيعمل مثلًا

(١) قصار الجمل ٢: ٢٧٨.
(٢) نفسه.

على تسهيل أمور تزويج شبّانه وشاباته، فيزيل العقبات من أمامهم ويمنع تعقيد الإجراءات والمطالب المادية التي تعوق الزواج. وهكذا على المجتمع أن يعمل في كل المجالات التي يمكنه أن يتدخل فيها ويؤثر في تكريس الخير والصلاح، مهما كان هذا التأثير محدودًا وقليلًا، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «قليل الحق يدفع كثير الباطل، كما أنّ القليل من النار يحرق كثير الحطب»[١].

(١) ميزان الحكمة ٢: ٤٦٥.

١٢ - الأيتام والظلم

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[١].

ذكر المفسرون في تفسير الآية الكريمة وجوهًا، حسبما نقل الشيخ الطوسي (أعلى الله شأنه)[٢]:

١ - الآية هي في مقام النهي عن حرمان ذوي القربى من الوصية، فعلى المرء أن يتقي الله فيهم، ولا يحرمهم مما هم في حاجة إليه.

٢ - هي في مقام النهي عن الوصية المبالغ فيها التي تجحف بحقوق الورثة وتضرّ بهم، كأنْ تكون بأكثر من ثلث التركة.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩.

(٢) التبيان ٣: ١٢٤.

٣ - هي خطاب لوليّ اليتامى بعدم ظلمهم، من منطلق أنه لو ظلمهم وترك أبناءه يتامى في المستقبل فإنّ عليه عندئذ أن يخشى لحوق الظلم بأبنائه هؤلاء الذين سيتركهم يتامى.

وهذا التفسير الأخير هو الذي اختاره معظم المفسرين، وهو الموافق للسياق الذي ذُكر فيه اليتامى قبل هذه الآية وبعدها. وبناءً عليه، يكون من يتولى شؤون الأيتام مطالبًا بأن يخاف عليهم، مثلما يخاف على أبنائه إنْ تركهم أيتامًا من بعده، وخوفه هذا ينبغي أن يتجلى في اتقاء الله فيهم وفي القول السديد الذي هو القول الصواب الحق كما ذكر المفسرون؛ لأنه إنْ لم يفعل هذا فسيكون قد عرّض أبناءه هو لنزول الظلم بهم في المستقبل، حين يغدون يتامى.

هذا، وثمة مجموعة من المواضع مرتبطة بالآية الشريفة نود البحث فيها:

الموضع الأول:

سُنّةُ هذه الحياة أنّ أعمال الإنسان ترتدّ عليه في هذه الحياة الدنيا، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًا فشرّ، فكما تدين تدان، ومن زرع حصد. والظلم ليس بمستثنى من هذه السُنّة الكونية، بل لعله في الصدارة منها، فعن الإمام جعفر

الصادق عليه السلام أنه قال: «من ظلم سلّط الله عليه من يظلمه، أو على عقبه، أو على عقب عقبه. قال الراوي: فقلتُ في نفسي: يظلم هو فيُسلّط الله على عقبه أو على عقب عقبه؟ فقال لي قبل أن أتكلم: إنّ الله يقول: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾»[1].

إنّ هذه لتذكرة، فمن سوّلت له نفسه أن يرتكب ظلمًا ما، عليه أن يكون على ثقة تامة من أنّ ظلمه هذا سيعود إليه، عاجلًا أم آجلًا، ولن يجد لنفسه من دونه مندوحة. فلتكن هذه الحقيقة الكونية مانعةً إياه عن الظلم بشتى صنوفه ومظاهره.

الموضع الثاني:

ذكر المفسرون وجوهًا في تعليل لحوق الظلم بالذرية مع أنّ الظالم أبوهم أو جدهم، ولم يرتكبوا هم أي ظلم حتى يؤاخذوا به. لعلّ أقرب هذه الوجوه وأدقّها ما ذكره بعضهم[2] من أنّ الظلم إذا صدر فإنه سرعان ما سيتخذ شكل السنّة

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٣١٥.
(٢) منهم صاحب التفسير الأمثل ٣: ٨٢.

الاجتماعية التي تسري على الجميع من دون أن يُستثنى منها أحد، فبذا يكون لحوق الظلم بالذرية من الآثار الوضعية لظلم أبيهم أو جدّهم.

والدرس المستفاد من هذا أنّ على المجتمع ألّا يقف موقف المحايد المتفرج عند وقوع الظلم؛ لأنّ مثل هذا الموقف سيجعل الظلم قابلًا للسراية والتفشّي. من هنا وجدنا الإمام أمير المؤمنين عليًا عليه السلام يوصي ولديه الحسن والحسين عليهما السلام بقوله: «كونا للظالم خصمًا، وللمظلوم عونًا»[١]. فلا بد من اتخاذ موقف واضح إزاء الظالم والمظلوم معًا، ولولا هذا لكان المتفرج راضيًا بالظلم، والراضي لا يختلف حاله سوءًا عن حال الظالم والمعين، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء ثلاثتهم»[٢].

بل أفاد بعض الروايات الشريفة أنّ مجرد تسويغ فعل الظالم والبحث له عن عذر، يستتبع التبعات المؤلمة وإنْ لم يكن الشخص المسوّغ راضيًا بالظلم، فقد ورد عن الإمام

(١) نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، ٣: ٣٦٧.
(٢) بحار الأنوار ٧٢: ٣٣٢.

الصادق عليه السلام أنه قال: «من عذر ظالمًا بظلمه سلّط الله عليه من يظلمه، وإنْ دعا لم يُستجب له، ولم يأجره الله على ظلامته»[١].

الموضع الثالث:

استعمال «لو» في قوله تعالى: ﴿لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ له دلالة مهمة ذكرها بعض المفسرين[٢]، وخلاصة هذه الدلالة الإشارة إلى أنّ الآية لا تتحدث عن خصوص الإنسان الذي له ذرية ضعفاء بالفعل، بل هي في مقام التمثيل، بمعنى أنها تريد من المسؤول عن اليتامى أن يفترض أنه لو كان له ذرية ضعفاء وتركهم من بعده يتامى، فكيف يريد من الناس أن يعاملوهم؟ فليعامل هو، إذًا، اليتامى بالمعاملة نفسها.

إنّ هذه قاعدة مهمة يريدنا الإسلام أن نطبقها حين نريد التعامل مع غيرنا، فنجعل تعاملنا معهم متطابقًا مع ما نريدهم أن يتعاملوا به معنا، فنعرف لهم حقوقهم مثلما ننتظر منهم أن يعرفوا حقوقنا. جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال:

---

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٣٣٢.
(٢) منهم صاحب الميزان ٤: ٢٠١.

«أحبوا للناس ما تحبون لأنفسكم، أما يستحيي الرجل منكم أن يعرف جاره حقه ولا يعرف حق جاره؟»[١]

وما يصدق على ما ينبغي أن نأتي به، يصدق كذلك على ما ينبغي لنا تركه، فالآخرون لا يحبون أن يُظلموا مثلما نكره أن نُظلم، فلنتجنب ظلمهم كما نسعى دومًا إلى التخلص من الظلم الواقع علينا. وقد اختصر لنا أمير المؤمنين عليه السلام هذا في قوله: «لا تَظلم كما لا تحب أن تُظلم»[٢].

الموضع الرابع:

مجيء الوصية بتقوى الله ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ وسط الحديث عن التعامل مع الأيتام والخوف على الذرية يُبرز لنا مظهرًا من مظاهر عظمة الإسلام وتفرّده في طريقة تربية أتباعه على التعامل الاجتماعي القويم ذي الأثر العميق في النفوس؛ ذلك أنه يريد أن يكون التعامل مع الآخرين منطلقًا من حضور روح التقوى في النفس، تقوى الله تعالى الذي لا يقبل من عباده إلا الصلاح والخير، لا أن يكون هذا التعامل قائمًا على أساس

(١) أصول الكافي ٢: ٣٥١.
(٢) ميزان الحكمة ٥: ٦١٨.

معاملة الناس بما يستحقونه في حد أنفسهم، فهذا الأساس قد يدعوني إلى عدم احترام بعض الناس وعدم تقديرهم اعتمادًا على بعض المقاييس الدنيوية المادية.

إنّ استحضار روح التقوى في مقام التعامل الاجتماعي كفيل بصون المجتمع عن الظلم؛ لأنّ الإنسان المتقي يحمل في قلبه خوفًا حقيقيًا من ربه، وهذا الخوف سيمنعه لا محالة عن ظلم غيره، فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «من خاف ربه كفّ ظلمه»[١].

وإن لم يصل الخوف إلى هذه الدرجة المانعة، وتجرّأ الإنسان على ظلم أخيه فعلًا، فليكن واثقًا من أنه يعرّض نفسه للشقاء الأبدي، وخسارة الدنيا والآخرة معًا، فقد روي عن الإمام علي عليه السلام أيضًا أنه قال: «من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن يكن الله خصمه يدحض حجته، ويعذبه في دنياه ومعاده»[٢].

الموضع الأخير:

الدعوة إلى التعامل الاجتماعي بـ «القول السديد» تحمل

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٣٠٩.
(٢) قصار الجمل ٢: ٧ - ٨.

دلالة واضحة على مدى اتساع نظرة الإسلام إلى العطاء الاجتماعي، فهذا العطاء الاجتماعي ليس منحصرًا في العطاء المادي وحده، مع ما لهذا العطاء من شأن لا يخفى، فثمة مكان كبير للعطاءات النفسية والخلقية والروحية أيضًا، بكل ما لهذه العطاءات من تجليات ومصاديق خارجية في الحياة الاجتماعية.

وإنّ نظرة سريعة إلى الروايات الشريفة الواردة في هذا الشأن لكفيلة بالكشف عن مدى الاهتمام الذي يخصصه الإسلام لهذا، فقد روي مثلًا عن رسول الإنسانية محمد ﷺ قوله: «إنّ أقربكم مني غدًا، وأوجبكم عليّ شفاعةً، أصدقكم لسانًا، وآداكم للأمانة، وأحسنكم خلقًا، وأقربكم من الناس»[١]، وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «من أراد أن يدخله الله عز وجل في رحمته ويسكنه جنته، فليحسن خلقه، وليعطِ النصفة من نفسه، وليرحم اليتيم، وليعن الضعيف، وليتواضع لله الذي خلقه»[٢].

(١) بحار الأنوار ٦٦: ٣٨١.
(٢) نفسه ٦٦: ٣٧٠.

١٣ - الامتحان الاجتماعي

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾(١).

وردت عدة روايات في بيان سبب نزول هذه الآية الكريمة والتي قبلها، وهي روايات متشابهة المضمون وإنْ اختلفت في تفصيلاتها وجزئيات الحوادث المذكورة فيها، فمن هذه الروايات ما رواه عبد الله بن مسعود قال: «مرّ الملأ من قريش على النبي ﷺ وعنده صهيب وعمّار وبلال وخبّاب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء عن قومك منّ الله عليهم من بيننا؟ أوَ نحن نكون تبعًا لهؤلاء؟

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٣.

اطردهم عنك فلعلّك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل فيهم القرآن. . . »[١].

ولئن كانت هذه الرواية، وأمثالها، تربط نزول الآية بقصة جرت في مكة قبل الهجرة النبوية منها، فإنّ هناك من الروايات أيضًا ما يربط الآية بقصة شبيهة حدثت في المدينة المنورة بعد الهجرة. فمن ذلك مثلًا: «كان سبب نزولها أنه كان بالمدينة قوم ضعفاء مؤمنون يُسمّون أهل الصفة، وكان رسول الله ﷺ أمرهم أن يكونوا في صفة يأوون إليها، وكان رسول الله ﷺ يتعاهدهم بنفسه، وربما حمل إليهم ما يأكلون، وكانوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ فيقرّبهم ويقعد معهم ويؤنسهم، وكان إذا جاء الأغنياء والمترفون من أصحابه أنكروا عليه ذلك، ويقولون له: اطردهم عنك. فجاء يومًا رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وعنده رجل من أصحاب الصفة قد لصق برسول الله ﷺ، ورسول الله يحدّثه، فقعد الأنصاري بالبُعد منهما، فقال له رسول الله ﷺ: تقدّم، فلم يفعل، فقال له رسول الله ﷺ: لعلّك خفت أن يلزق فقره

(١) الدر المنثور، السيوطي، ٣: ٢٤.

بك! فقال الأنصاري: اطرد هؤلاء عنك، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ . . .﴾»[١].

لكن الحقّ أنّ الصنف الأول من الروايات أرجح؛ نظرًا لما ثبت عند المفسرين من كون سورة الأنعام قد نزلت دفعة واحدة في مكة قبل الهجرة[٢]، فتكون - بناءً على ذلك - الروايات المتحدثة عن النزول في المدينة بعد الهجرة مرجوحة، ولعلّ ذكرها في كتب التفسير وأسباب النزول جاء لما وجده مؤلفوها من مناسبة بين مضامينها ومدلولات الآية الشريفة، وليس بدعوى كونها متحدثة عن سبب النزول، حسبما أفاد العلّامة الطباطبائي (قدّس سرّه)[٣].

ومهما يكن من أمر، فالآية تتحدث عن الفتنة الإلهية لبعض الناس ببعض، أي الامتحان الذي أراده الله سبحانه للأغنياء والفقراء بعضهم ببعض، وهو الامتحان الذي عاقبته أن يقول الأغنياء: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، فاللام في «ليقولوا» هي لام العاقبة، مثل تلك التي في قوله سبحانه:

(١) البرهان في تفسير القرآن، البحراني، ٣: ٣٤.
(٢) الميزان، الطباطبائي، ٧: ١١١.
(٣) نفسه.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[١]، فمن الجليّ أنّ آل فرعون لم يلتقطوا موسى عليه السلام لأجل أن يكون لهم عدوًا وحزنًا، وإنما التقطوه ليكون قرة عين لهم، لكن عاقبة هذا الالتقاط هي أنه صار لهم عدوًا وحزنًا. وهكذا في الآية محل الكلام، فالامتحان الإلهي ليس لأجل أن يقولوا ما قالوه، وإنما كانت مقولتهم هذه عاقبةً لذلك الامتحان.

وقد جاءت مقولتهم في صيغة استفهامية، والمراد من هذا الاستفهام هو إما الإنكار وإما التهكم والسخرية، فالقائلون ينكرون أن يكون الضعفاء الفقراء من المسلمين هم الذين تفضّل الله تعالى وأنعم عليهم من بين الناس، ويسخرون ممّن يقول ذلك ويدّعيه أمامهم. ومن البعيد عن السياق والمقام أن يكون الاستفهام هنا حقيقيًا، كما لربما يظهر من عبارة الشيخ الطوسي (طيّب الله ثراه)[٢].

وجاءهم الرد الإلهي على إنكارهم وسخريتهم في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وهو يحوي استفهامًا أيضًا، لكن الاستفهام هذه المرة يفيد التقرير. وخلاصة

(١) سورة القصص، الآية: ٨.
(٢) التبيان ٤: ١٤٦.

مضمون هذا الرد أنّ هؤلاء إنما استحقوا الفضل الإلهي والمنّة الربّانيّة لكونهم شاكرين، والشكر يستتبع زيادة النعم، وليس غير الله تعالى مَن هو أعلم بعباده الذين يؤدّون حق شكره، فينالون منه ما أعدّه لعباده الشاكرين من خير ونعمة.

ونعرض لأهم إفادات الآية الشريفة في الملحوظات الآتية:

الملحوظة الأولى:

العلاقة بين الأغنياء والفقراء هي، في حقيقتها، امتحان إلهي، ولا بد لكل الناس من أن يتنبّهوا له، ويتأكدوا من توفيرهم لكل متطلبات النجاح فيه. إنّ أهم متطلبات النجاح من جهة الأغنياء أن يؤدوا حق الشكر للمنعم سبحانه وتعالى، وأن يعطفوا على الفقراء ويعملوا على مساعدتهم وقضاء حوائجهم. ومن الجهة الأخرى، جهة الفقراء، يتطلب النجاح في الامتحان الإلهي أن يتمسكوا بالصبر ويعرضوا عن الحسد والتعدي على الأغنياء. روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «لا تكن بطرًا في الغنى، ولا جزعًا في الفقر»[1].

(١) ميزان الحكمة ٧: ٢٨٩.

وهكذا يكون الغنى والفقر، في واقع الأمر، محكّين للاختبار، يُختبر بهما الناس أجمعون، أو غالبهم، فينماز منهم الناجح عن الفاشل، والسعيد عن الشقي، وإلى هذا أشار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «الغنى والفقر يكشفان جواهر الرجال وأوصافها»[١].

الملحوظة الثانية:

قد يحدث أحيانًا أن يكون العرف الاجتماعي متعارضًا مع النظرة الشرعية في موضوع من الموضوعات، فهؤلاء الأثرياء الذين تتحدث عنهم الآية الشريفة كان في عرفهم أنّ المحترم اجتماعيًا - بسبب كثرة الأموال أو رفعة المنصب والمقام مثلًا - يجب أن يكون محترمًا دينيًا أيضًا؛ لأنه يجب أن يُقدّم في كل المجالات، فيكون له في الدين أيضًا شأنه الخاص ومنزلته العالية مما لا يشترك فيه معه الفقراء والضعفاء. هذا المنطق ردّ عليه القرآن الكريم ببيان أنّ الله تعالى هو أعلم بمن يجب تقديمه من الناس، ولن يمنع الفقراءَ فقرُهم من التقدم ما داموا لله شاكرين على الرغم من سوء حالهم.

(١) ميزان الحكمة ٧: ٢٩١.

إنّ هذا التعارض بين الأعراف والشرع ليقتضي من المسلم الحريص على سلامة دينه أن يزن كل الأعراف الاجتماعية والعادات والتقاليد السائدة، بالمقياس الشرعي، ففي كل مجتمع قد يوجد شيء قليل أو كثير من هذا كله، وآنئذ لا محيص عن بذل كل الوسع والطاقات المخلصة الخيّرة في طريق التغيير، مهما كان طريقًا طويلًا وشاقًا ويستدعي التضحيات والعطاءات، فعن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «غيّروا العادات تسهل عليكم الطاعات»[1].

الملحوظة الثالثة:

من أكبر الأخطاء التي يمكن أن يقع فيها الإنسان في طريق بحثه عن الحق أنْ يربط الحق والباطل بمقامات الناس الاجتماعية، فيحسب أنّ الحق مرتبط دومًا بذوي الشأن الرفيع والمقام الشريف في المجتمع، وأنّ الفقراء الضعفاء لا شأن لهم ولا صلة بالحق، وهو منهم براء! الآية الكريمة تحدّثنا عن أناس هكذا كانوا، فقد امتنعوا عن الاستماع إلى ما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم احتقارًا لأتباعه الفقراء والمساكين، ذاهبين

(١) ميزان الحكمة ٧: ١٢٣.

إلى أنّ الحق لا بد أن يكون عند غيرهم، من ذوي الشرف الاجتماعي والمكانة العظيمة بين الناس.

وهذا الذي ذكرته الآية المباركة نلاحظه يتكرر في كل الأزمنة والأمكنة، لا سيما في زماننا هذا الذي تبوأت فيه وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي مكانة مهمة في الحياة العصرية، فكثيرًا ما ينخدع الناس ويغترّون، لا سيما الشبان منهم، بأصحاب الأسماء المشهورة، الذين يعمد الإعلام إلى تلميع صورهم وزيادة شهرتهم والإشادة بشأنهم، مع أنهم ليسوا في معظم الأحايين ممّن قدّموا للبشرية خدمات جليلة حقيقية، فقد يكونون من لاعبي كرة القدم أو المغنين أو الممثلين مثلًا، ولربما يؤدي هذا الانجذاب إليهم والانخداع بهم إلى أن يسعى الشاب المسلم إلى تقليدهم والسير على خُطاهم ولو في بعض المظاهر الخارجية أو بعض الجوانب السلوكية مثلًا، وكأنّ شهرتهم تعني - بالضرورة - كونهم أصحاب حق لا بد أن يُؤخذ به!

إنّ النظرة الإسلامية في هذا المجال واضحة لا مراء فيها، فالحق حق أيًا كان القائل أو العامل به، والباطل يظل باطلًا مهما ارتفعت المكانة الاجتماعية لمن قال أو عمل به؛

لأنّ الحق والباطل ليسا مرتبطين بالناس وأقدارهم ومقاماتهم، مثلما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إنّ الحق والباطل لا يُعرفان بأقدار الرجال، اعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله»[١].

الملحوظة الأخيرة:

شكر الله (سبحانه وتعالى) مرتبط ارتباطًا مباشرًا بالنعم الإلهية وزيادتها واستمرارها، وبما أنه (جلّ وعلا) أعلم بعباده، فهو أعلم بالشاكرين منهم، وأعلم بحيث يجعل نعمته: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

على أنّ من المهم أن نلحظ هنا أنّ الشكر ليس مجرد لقلقة لسانية نأتي بها متى شئنا، إذ لو كان الشأن كذلك لما وصف القرآن أهل الشكر بالقلة: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[٢].

الشكر الحقيقي منزلة لا يُلقّاها إلا ذو حظ عظيم، فهي تعني أن نستعمل نعم الله سبحانه في طاعته، ونتجنب الاستعانة بها على معصيته، فعن الإمام علي بن أبي

(١) ميزان الحكمة ٢: ٤٧٣.
(٢) سورة سبأ، الآية: ١٣.

طالب عليه السلام أنه قال: «شكر كل نعمة الورع عمّا حرّم الله»[١]. فالشكر، على هذا، يكون حقيقيًا صادقًا حينما يتجلى في العمل والفعل خارجًا، وليس يتوقف عند اللسان وحده؛ لذا قال الإمام علي عليه السلام أيضًا: «شكر المؤمن يظهر في عمله، وشكر المنافق لا يتجاوز لسانه»[٢].

(١) ميزان الحكمة ٥: ١٤٦.
(٢) نفسه.

١٤ - من آداب العطاء الاجتماعي

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾(١).

اقترن اهتمام الإسلام البالغ بضرورة العطاء الاجتماعي باهتمام آخر بضرورة اشتمال هذا العطاء على آداب معيّنة، تجعل لهذا العطاء مكانته، وتعطيه القيمة الحقيقية التي يريدها الإسلام له. وهذه الآية الشريفة واحدة من آيات قرآنية متعددة عرضت لهذا الجانب المهم، فهي - في فكرتها العامة - ترشد المسلمين قائلة: إذا جاءكم فقير أو مسكين سائلًا، فأنْ تردّوه مع قول معروف ومغفرة خيرٌ من أن تعطوه الصدقة وتُتبعوها بأذى.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٣.

اختلف المفسرون في المراد من «القول المعروف». فذهب بعضهم إلى أنه الأمر بالمعروف[١]، لكن هذا ضعيف لا يتناسب مع سياق الآية، وذهب آخرون إلى أنّ «القول المعروف معناه ما كان حسنًا جميلًا، لا وجه فيه من وجوه القبح، وهو أن تقول للسائل قولًا معروفًا عليه حسنًا، من غير صدقة تعطيها إياه»[٢]. وهذا يتفق في المعنى، أو يكاد، مع ما قاله صاحب الميزان: «المعروف من القول ما لا ينكره الناس بحسب العادة، ويختلف باختلاف الموارد»[٣].

ومثلما اختلفوا في «القول المعروف». اختلفوا أيضًا في «المغفرة» المذكورة في الآية الشريفة، وكانت لهم أقوال عدة، أهمها:

أ - هي السلامة من المعصية، وهذا قول الجبّائي بناءً على ما نقله الشيخ الطوسي[٤]، أي أنّ عليك أن تردّ سائلك ردًا ليست فيه معصية.

---

(١) نقل صاحب التفسير الأمثل (٢: ٢٠٥) هذا الرأي عن صاحب تفسير «البحر المحيط».
(٢) التبيان، الشيخ الطوسي ٢: ٣٣٥.
(٣) الميزان ٢: ٣٨٩.
(٤) التبيان ٢: ٣٣٥.

ب - المقصود نيل مغفرة من الله تعالى بسبب الرد الجميل، وهو قول الزمخشري[١].

ج - المراد أن تغفر أنت للسائل بأن تعفو عن ظلمه لك سابقًا، وهذا القول للحسن البصري بناءً على نقل الشيخ الطوسي[٢].

د - أن تعفو عن إساءة السائل الأدبَ معك في وقت سؤاله على وجه الخصوص، وهذا مختار صاحب الميزان[٣].

هـ - «المغفرة» هنا جاءت بمعناها اللغوي الأصلي، أي الستر، بمعنى أنّ عليك أن تستر على السائل وسؤاله، فلا تفضحه بين الناس، وهذا القول نقله صاحب الأمثل عن «بعضٍ»[٤].

بعد هذا، اختتمت الآية الشريفة بقوله عزّ من قائل: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾، وتكلم المفسرون واختلفوا هنا أيضًا، في دلالات اختيار هاتين الصفتين الإلهيتين دون سواهما، وذكروا آراء، أهمها:

---

(١) الكشاف ١: ٣١٢.
(٢) التبيان ٢: ٣٣٥.
(٣) الميزان ٢: ٣٨٩.
(٤) الأمثل ٢: ٢٠٥.

١ - إنّ ما تقدّمونه من خير وعطاء، أيها المعطون، إنما هو لمصلحتكم أنتم لتنتفعوا، أما ربكم فهو غنيّ عنكم، ويحلم بكم على جهالاتكم[١].

٢ - ظلم المنفِق (أو المعطي) للمنفَق عليه (أو السائل) يدل على كونه يستعظم ما ينفقه من جهة، وعلى أنه يتأثر نفسيًا بإساءة السائل إليه من جهة أخرى. والصفتان الإلهيتان المذكورتان تشيران إلى أنّ على المؤمن أن يتخلق بأخلاق ربه الذي هو «غنيّ» فلا يكبر عنده ما جاد به، وهو «حليم» فلا يتعجل في المؤاخذة بالسيئة[٢].

٣ - على الإنسان المعطي ألّا يغترّ بنفسه وماله، فيعامل الفقراء باستعلاء؛ لأنّ الغنيّ بذاته ليس سوى الله سبحانه، وهو يعامل عباده بكل حلم[٣].

وحريّ بنا أن نغنم من الآية الكريمة مجموعة من عطاءاتها:

(١) التبيان ٢: ٣٣٥.
(٢) الميزان ٢: ٣٨٩.
(٣) الأمثل ٢: ٢٠٦.

العطاء الأول:

إلحاح القرآن الكريم في مواضع متعددة منه - منها هذه الآية - على بيان أنّ هذا العمل الاجتماعي جيد وحسن، وذاك أيضًا جيد وخيّر، بل إلحاحه على بيان أنّ هذا أفضل من ذاك، كل ذلك يستثير في دواخلنا الرغبة في أن تكون أعمالنا وتحركاتنا الاجتماعية كلها منطلقة من منطلق البحث عن الخير والسعي نحوه، الخير لأنفسنا وللناس من حولنا وللمجتمع كله.

إنّ نتائج أعمالنا وتصرفاتنا الاجتماعية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا ومباشرًا بالنيّات التي تحرّكنا والغايات التي نستهدفها؛ ذلك أنّ إنجازاتنا ستكون أكبر والعطاءات ستكون أبرز بقدر ما نستهدف الخير ونسعى نحوه. روي عن مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «عليكم بأعمال الخير فتبادروها، ولا يكن غيركم أحقّ بها منكم»[1].

أمّا إذا كان حراكنا الاجتماعي منبعثًا من حب الفضول، والرغبة في التجسس على الآخرين، وربما الحسد، وأحيانًا

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٠١.

من الرغبة في الشهرة والبروز، فآنئذ لن نجني نحن ومجتمعاتنا سوى الخسران المبين الذي لن يكون أصغرَ تجلياته انتشارُ الفتن والخلافات والضغائن بين أفراد المجتمع الواحد.

العطاء الثاني:

العطاء، في المنظور الإسلامي، لا ينحصر في العطاء المادي وحده، بل قد يكون العطاء غير المادي مقدّمًا على العطاء المادي في الأهمية والشأن عند الله تعالى، كما في مورد الآية الشريفة: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾.

ويا لها من عظمة! هذه التي يكشف عنها الإسلام حين يحثّ أتباعه على العطاء في كل مجالات الخير، مهما ضؤلت أو صغرت في أنظارهم، فهي كلها مجالات يريدها الله سبحانه، وما يريده الله لا يكون صغيرًا، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تحقرن من المعروف شيئًا، ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وبِشْر حسن»[1].

ولمّا كانت مجالات العطاء رحبة واسعة إلى هذه الدرجة،

(١) قصار الجمل ٢: ٣٢.

لم يكن مستغربًا أن يطالب الإسلام كل مسلم في كل يوم بعطاء من العطاءات، بحسب قدرته وإمكانه، فقد روي عن النبي الأعظم ﷺ قوله: «إنّ على كل مسلم في كل يوم صدقة، قيل: ومن يطيق ذلك؟ فقال ﷺ: إماطتك الأذى عن الطريق صدقة، ونهيك عن المنكر صدقة، وردّك السلام صدقة»[١].

العطاء الثالث:

تعلّمنا الآية الكريمة أنّ التعامل مع الإنسان الفقير المحروم ينبغي أن يكون قائمًا على مستوى مرتفع وجميل في الجانبين اللفظي ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، والعملي ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ معًا؛ ذلك أنّ الفقر قنبلة موقوتة يمكن أن تنفجر في أي وقت إذا أساء المجتمع التعامل معها، فتتسبب في حدوث خسائر فادحة فيه؛ لذا قال رسول الله ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفرًا»[٢]، فالحرمان نار مستعرة في وجدان المحروم، فعلى المجتمع الواعي أن يلجأ إلى كل الطرق العقلائية التي تمكّنه من السيطرة عليها والتحكم في آثارها، لئلا تحرق المجتمع بأسره باللجوء إلى الجرائم والمنكرات مثلًا.

---

(١) ميزان الحكمة ٥: ٣٢٤.

(٢) ميزان الحكمة ٧: ٤٩٨.

ليس مستغربًا، إذًا، أن نجد في النصوص الشرعية هذا الاهتمام الكبير بكيفية التعامل مع الفئة المحرومة من المجتمع، فهذا التعامل سيكون مسؤولًا مباشرًا عن سلوك هذه الفئة ومدى تحقيق الأمن الاجتماعي الذي لا يستغني عنه أي مجتمع. من هذه النصوص مثلًا ما روي عن رسول الإنسانية محمد ﷺ: «إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها، ثم ردّوا عليه بوقار ولين، إما ببذل يسير أو رد جميل، فإنه قد يأتيكم من ليس بإنس ولا جانّ ينظرونكم كيف صنيعكم فيما خوّلكم الله تعالى»[١].

العطاء الرابع:

التعبير القرآني: ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ ينبّه على ضرورة أن ندقق في نوعية الأعمال الصادرة منّا بعد إتياننا بالمعروف، فثمة ناس قد يأتون بأعمال الخير والمعروف ثم ينسون أنفسهم، فلا يدققون في سلوكهم اللاحق الذي قد يتسبب في لحوق الإهانة بالآخرين ويستتبع إحساسهم بالمذلة والحقارة، فنجد بعضهم لا يفتأ يذكّر الطرف المقابل

(١) نور الثقلين ١: ٢٨٣.

بالمعروف الذي أسداه إليه في يوم ما، ويمنّ عليه به، ولربما لا يتورع عن أذيته وإزعاجه، وكأنّ معروفه السابق يسوّغ له فعل ما تشتهيه نفسه، أيًّا كان. وقد ورد عن الرسول الأكرم ﷺ أنه قال: «من أسدى إلى مؤمن معروفًا ثم آذاه بالكلام أو منّ عليه فقد أبطل صدقته»[١].

ولا نريد هنا أن نخوض في تفصيلات مسألة إبطال المعصية اللاحقة لثواب الطاعة السابقة، فقد عرضت لها الدراسات المختصة بعلم الكلام بالتفصيل تحت عنوان «الحبط» أو «الإحباط». وللفرق الكلامية الإسلامية آراء متعددة فيها. وخلاصة رأي علماء الإمامية فيها أنّ الحبط لا يقال بوجوده إلا في خصوص الموارد التي دلّت النصوص الشرعية القطعية عليها، ومعنى الحبط فيها هو أنّ هذه النصوص كاشفة عن أنّ الطاعة الصادرة سابقًا كان الثواب عليها مشروطًا من الأصل بعدم لحوق المعصية المعيّنة، فمثلًا نستكشف من الحديث النبوي الشريف المتقدم أنّ المعروف الذي أُسدي للمؤمن كان ثوابه مشروطًا بعدم لحوق المنّة أو الأذيّة بالكلام.

(١) البرهان، البحراني ١: ٥٥٧.

العطاء الأخير:

المسلم مطالب بأن يرتفع بأخلاقه الاجتماعية عن مستوى الأخلاق الأرضية إلى مستوى الأخلاق الإلهية، فالأخلاق الأرضية تدعو إلى جعل المقياس المادي هو الأساس في التعامل، فمن كان ذا مال وجاه اجتماعي علينا أن نعامله بكل احترام وتبجيل، في حين أنّ البائس المحروم لن ينال سوى الاحتقار والإبعاد. لكنّ الأخلاق الإلهية ترفض هذا المقياس بكل تأكيد، وتنظر إلى الناس جميعًا على أنهم متساوون في إنسانيتهم، بلا مائز بين فقير وغنيّ، أو شريف ووضيع اجتماعيًا، إلا بالتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[١].

وقد حذّرت الروايات الشريفة، أيّما تحذير، من الاعتماد على المقياس المادي في تفاوت التعامل مع الناس، وتوعّدت بعواقب وخيمة تنتظر من يفعل ذلك. فمن ذلك مثلًا ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «من لقي فقيرًا مسلمًا فسلّم عليه خلاف سلامه على الغنيّ لقي اللهَ عز وجل يوم القيامة وهو عليه غضبان»[٢].

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٢) ميزان الحكمة ٧: ٥١٥.

١٥ - الوحدة الإسلامية وملامحها

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[١].

تُعدّ الوحدة الإسلامية واحدة من أهم القضايا الحساسة المتعلقة بحياة المسلمين جميعًا، ومع هذا، وربما بسببٍ منه، هي محل لكثير من الأسئلة والنقاشات المثارة دومًا:

- فما معنى «الوحدة»؟

- وكيف تكتسب صفة «الإسلامية»؟ أبمجرد كونها تربط بين أطراف إسلامية أم من طريق آخر؟

- وما مدى ضرورة هذه الوحدة؟

- وهل ثمة أسس واضحة يمكن أن تقوم عليها؟

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

- وهل يمكننا تحديد مواصفات معيّنة لا بد من توافرها فيها؟

هذه الأسئلة، وغيرها، ما فتئت تشغل المفكرين الإسلاميين، وتستحوذ على قدر غير قليل من بحوثهم ودراساتهم في كتاباتهم ومؤتمراتهم العلمية، ولهم في مقام الإجابة عنها آراء واتجاهات متنوعة، لسنا هنا بصدد التعرض لها، فلها مكانها اللائق بها.

ما نريده هنا، تحديدًا، هو أن نتناول أهم ملامح الوحدة الإسلامية بناءً على ما يفيده المقطع القرآني المذكور من الآية الشريفة المنقولة من سورة آل عمران، ففي هذا المقطع الشريف غنًى لنا عن كثير من التصريحات والكتابات التي قد تعتمد في كثير من الأحيان على الآراء الشخصية والنظرات الذاتية لأصحابها.

إنّ هذا المقطع من الآية يفيدنا الملامح الآتية:

الملمح الأول:

الوحدة الإسلامية ضرورة أساسية لا غنى للأمة عنها في أي حال من الأحوال، فمن دونها لن يَنتظر هذه الأمةَ سوى الضياع والضعف والهوان. وقد دلّت الآية الشريفة على هذا

المعنى باستعمالها طلب الاعتصام: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ﴾، ومن المعلوم أنّ الاعتصام هو بمعنى اللواذ والتمنّع، ومنه «العصمة» بمعنى المَلَكة النفسية المانعة من الذنوب دون جبر.

إنّ التعبير بالاعتصام يجأر بالدلالة على الأهمية البالغة الفائقة للوحدة، فليست المسألة هنا ثانوية عادية يمكن أن نختلف بشأن مدى أهمية حضورها، بل هي مسألة وجودية مصيرية، فمن دون الوحدة سيؤول المصير إلى الضعف والفشل الذريع، وهذا ما نبّه عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[1]، فذهاب الريح كناية عن زوال القوة وعدم تحقق المقصود.

وقد أشارت الروايات الشريفة إلى أهمية الوحدة وضرورتها حينما عبّرت عن الفرحة العظيمة التي تغمر إبليسَ عندما تقع بين المسلمين خصومة أو نزاع، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لا يزال إبليس فرحًا ما اهتجر المسلمان، فإذا التقيا اصطكت ركبتاه وتخلّعت أوصاله ونادى يا ويله، ما لقي من الثبور»[2].

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.
(٢) أصول الكافي ٢:

الملمح الثاني:

صيغة فعل الأمر الموجودة في ﴿وَٱعْتَصِمُواْ﴾ تفيد الوجوب، وجوب اعتصام المسلمين جميعًا بحبل الله تعالى، وسيأتي المراد من الحبل. وصيغة النهي في ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ تفيد حرمة التفرّق والتشرذم، وهذا معناه، في المحصلة، أنّ الوحدة الإسلامية تكليف شرعي إلزامي، وليس الشأن متعلقًا بقضية من القضايا المستحبة غير الإلزامية. وليس هذا المنحى الإلزامي بمستغرب بعد كل تلك الأهمية التي تختص بها قضية الوحدة الإسلامية، مما تقدم بيانه في الملمح السابق.

إنّ كون التكليف إلزاميًا متوجهًا إلى المسلمين جميعًا معناه كون الوحدة حقًا للأمة الإسلامية في عهدة كل مسلم. وقد أولى الإسلام أهمية كبرى لحقّ المؤمن الواحد، مبيّنًا ثوابًا عظيمًا لأدائه، وعقابًا أليمًا على إهماله، فكيف إذا كان الحق حقًا للأمة كلها؟ لا شك أنّ القضية تغدو آنئذٍ أهم وآكد.

من الروايات الشريفة الدالة على أهمية مراعاة حق المؤمن قول الإمام الصادق عليه السلام: «من حبس حق المؤمن أقامه الله عز وجل يوم القيامة خمسمائة عام على رجليه حتى يسيل عرقه أو دمه، وينادي منادٍ من عند الله: هذا الظالم

الذي حبس عن الله حقّه، قال: فيُوبّخ أربعين يومًا ثم يؤمر به إلى النار»[١]. وكذلك من الروايات البارزة تأثيرًا في هذا الصدد ما روي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «من قصد إليه رجل من إخوانه مستجيرًا به في بعض أحواله فلم يجره بعد أن يقدر عليه، فقد قطع ولاية الله عز وجل»[٢].

الملمح الثالث:

لم تكتفِ الآية المباركة بالدعوة إلى الوحدة بين المسلمين جميعًا، حتى بيّنت أنّ أساس هذه الوحدة ينبغي أن يتمثل في الحق والدين دون أي شيء آخر: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾.

ومهما اختلفت أقوال المفسرين وتنوّعت في مقام بيان المراد من «حبل الله». فقيل: هو الدين، وقيل: هو الكتاب والسنة، وقيل أيضًا: إنه طاعة الله، وقيل كذلك: هو إخلاص التوبة، وأيضًا: الجماعة، وثمة من ذهب إلى أنّ المراد آل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ودلّت على هذا رواية الباقر عليه السلام: «آل

(١) أصول الكافي ٢: ٢٠٨.
(٢) نفسه ٢: ٢٠٨.

محمد عليهم السلام هم حبل الله الذي أمرنا بالاعتصام به فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[١]، أقول: مهما اختلفت أقوالهم فهي غير متنافية؛ لأنها جميعًا في مقام ذكر مصاديق وأمثلة للمعنى المطلق الواسع الذي يحمله «حبل الله». ذلك المعنى الذي عبّر عنه الفخر الرازي بقوله: «فكان المراد من الحبل ههنا كل شيء يمكن التوصل به إلى الحق في طريق الدين، وهو أنواع كثيرة، فذكر كل واحد من المفسرين واحدًا من تلك الأشياء»[٢].

إنّ القرآن الكريم لا يريد من المسلمين أن يتحركوا صوب أية وحدة كانت، وإنْ كانت وحدةً تحت راية شياطين الجن والإنس! أو كانت وحدة لنصرة إسرائيل وتحقيق أهدافها الجهنمية في المنطقة والعالم! الوحدة المطلوبة لا بد أن تتسم بأنها للتمسك بحبل الله، والسير في طريقه، وتحقيق الأهداف السامية التي يريد من الأمة الإسلامية أن تحققها في وجودها ووجود البشرية جمعاء، هكذا فلتكن الوحدة الإسلامية، وإلا فلا تكنْ.

---

(١) تفسير العياشي ١: ٢١٧.
(٢) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ٤: ٣٧١.

إنّ من المؤسف أنّ ثمة دعاةً إلى الوحدة يقصرون أنظارهم على أهميتها في حد نفسها، ودونما نظر إلى الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه، فتكون الوحدة - في معتقدهم - مطلوبة في كل حال وعلى أي أساس كان، حتى إذا كانت وحدةً في سبيل تحقيق أهداف إبليس نفسه! وكذلك من المؤسف أن يكون في الأمة دعاة إلى الوحدة يتخذون غير «حبل الله» أساسًا لها، فتراهم تارةً يتحدثون عن الوحدة العربية، وأخرى يحدّثونك عن الوحدة الوطنية، أو المذهبية مثلًا، غافلين عن الأساس الأصيل المهم الذي دعانا القرآن الكريم إليه، وهو «حبل الله».

الملمح الرابع:

الوحدة الإسلامية ليست شيئًا سهلًا متاحًا نيله بكل يُسر، بل هي صعبة المنال، وتحتاج إلى جهد كبير للحصول عليها أولًا، ثم للاحتفاظ بها أخيرًا. دلّتنا الآية الشريفة على هذا المعنى بدعوتها، في البدء، إلى الاعتصام بحبل الله، وهذا التعبير أشار بعض المفسرين[١] إلى ما فيه من روعة بيانية، فهو

(١) كصاحب التفسير الأمثل ٢: ٤١٦.

يستحضر أمامنا صورة الإنسان المتردي في مكان سحيق، كبئر مثلًا، ويحتاج في خروجه ونجاته إلى بذل جهد كبير بالاستعانة بحبل يمكّنه من الوصول إلى مراده. ودلّتنا الآية أيضًا على هذا المعنى بنهيها، في النهاية، عن التفرّق، فكأنّ الجهد المبذول في البدء للحصول على الوحدة غير كافٍ، فلا بد من جهد آخر للمحافظة عليها وإبقائها.

وليس ينبغي أن يجد المرء أية غرابة في هذه الحقيقة، حقيقة احتياج الوحدة الإسلامية إلى جهد لتحقيقها وجهد لإبقائها، بعد أن يعرف أنّ هناك أناسًا يبتغون الفتنة، وفينا سمّاعون لهم، ولا يعنيهم سوى التفريق بين الأحبة، وهؤلاء هم شرار الناس كما عبّر عنهم رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: المشاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الأحبة، الباغون للبُراء المعايبَ»[1].

الملمح الأخير:

ليس يمكن للوحدة الإسلامية أن تتأتى إلا بعد تحرّك فعلي وجماعي عند المسلمين جميعًا، فالآية الشريفة تطالب بالتحرك العملي نحو الاعتصام ونبذ الفرقة: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ

(١) أصول الكافي ٢: ٢٠٩.

﴿ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾، وهذا يشير إلى أنّ التنظير وحده لا يسمن ولا يغني من جوع ما لم يقترن بالعمل، ولولا هذا الاقتران المطلوب لكُنّا جميعًا مصاديق واضحة لقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾[١].

والمستفاد من الروايات الشريفة أنّ اقتران الجانب العملي بالجانب النظري قيمة من القيم المهمة التي لا غنى عنها في كل الشؤون، مهما كانت أهميتها وحجمها، فكيف بشأن في مثل أهمية الوحدة الإسلامية؟ روي، مثلًا، أنّ رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «ما ينفي عني حجة الجهل؟ قال: العلم، قال: فما ينفي عني حجة العلم؟ قال: العمل»[٢]. وورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «الشرف عند الله سبحانه بحسن الأعمال، لا بحسن الأقوال»[٣]، وقال عليه السلام أيضًا: «بحسن العمل تُجنى ثمرة العلم، لا بحسن القول»[٤].

(١) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣.
(٢) ميزان الحكمة ٧: ٨.
(٣) نفسه.
(٤) نفسه.

والتحرك العملي نحو الوحدة الإسلامية، بتوفير مستلزماتها والتخلص من كل عوائقها وموانعها، لن يؤتي ثماره المرجوّة ما لم يكن تحركًا من جميع المسلمين بلا استثناء، على اختلاف توجهاتهم وآرائهم ومذاهبهم. الآية الكريمة نسبت الاعتصام المطلوب إلى واو الجماعة ﴿وَٱعْتَصِمُواْ﴾، وكذلك فعلت مع التفرّق المنهيّ عنه ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾، فالأمر والنهي كلاهما موجّه إلى جماعة المسلمين. ولم تكتفِ الآية بهذا حتى أضافت الحال ﴿جَمِيعًا﴾؛ لتكون فكرة التعميم واضحةً بنحو لا يحتمل أي ريب.

إنّ منطق الإسلام يدعو إلى ضرورة تعاون المسلمين، فيما بينهم، على كل أمورهم المنضوية تحت مظلة «البر والتقوى»: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[١]، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»[٢]، ولا مراء في أنّ قضية التعاون هذه تكون مطلوبة بنحو آكد كلما زادت أهمية مجال التعاون. وإذا كان لإماطة الأذى عن طريق السير المادي العادي كل هذا الثواب الذي

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.
(٢) قصار الجمل ٢: ٧٩.

عبّر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «من أماط عن طريق المسلمين ما يؤذيهم كتب الله له أجر قراءة أربعمائة آية، كل حرف بعشر حسنات»[١]، فكيف يكون ثواب إماطة الأذى عن طريق وحدة المسلمين جميعًا؟

(١) نفسه ٢: ٧٨.

١٦ - الإعراض الرسالي

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾[1].

تأتي هاتان الآيتان الشريفتان في سياق الآيات القرآنية غير القليلة التي ترمي إلى إرشاد رسول الله ﷺ إلى الطريق الأمثل الذي ينبغي له أن يسلكه في مجال الدعوة إلى الله تعالى وهداية عباده إليه وإلى دينه القويم. وهما تطالبانه أن يسلك مع بعض الناس سبيل «الإعراض». فهو أوفق بحالهم، وأدعى إلى تحقيق مقاصد الدين. وقد ذهب المفسرون في تفسير معنى الإعراض المذكور ههنا مذهبين:

(١) سورة النجم، الآيتان: ٢٩، ٣٠.

فمنهم من اختار أنّ المراد هو أعرضْ يا رسول الله عن أذاهم لك، واحتملهم، ولا تقابلهم بمثل ما يعاملونك به، دون أن تترك دعوتهم إلى الحق[١]، ومنهم من رجّح أن يكون المقصود: توقف يا رسول الله عن دعوتهم، ولا تتعب نفسك معهم، فإنهم لا يرتجى منهم خير ولا اهتداء[٢].

وأيًا كان المراد، فالمطلوب هو الإعراض عمّن تتوافر فيه هاتان الصفتان: ﴿تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، فأما الصفة الأولى فقد ذكر بعض المفسرين أنّ المراد من «الذكر» فيها هو القرآن، وذكر غيره أنّ المقصود هو عبارة عن الأدلة العقلية والبراهين على الله تعالى، وثمة أيضًا من مال إلى أنه ما يقابل الغفلة. والحقّ أنّ الكلمة (الذكر) هنا مطلقة، فهي تتناول في رحابها كل توجّه إلى الله تعالى، سواء أكان متحققًا بالقرآن أم بالأحاديث الشريفة أم بالأدلة العقلية أم بذكر القيامة أم بغير ذلك من وسائل وأسباب.

وأما الصفة الأخرى فهي دالّة على ذلك الصنف من البشر

---

(١) ممن ذهبوا إلى هذا الرأي: الشيخ الطوسي في التبيان، والشيخ الطبرسي في مجمع البيان.

(٢) من الذين اختاروا هذا الرأي: السيد الطباطبائي في الميزان، والشيخ ناصر مكارم الشيرازي في الأمثل.

الذي يصب كل اهتمامه وعنايته على هذه الحياة الدنيا، فلا يعنيه ما بعدها، ولا يسعى أيضًا إلى معرفة ما بعدها، فكل علمهم مقصور على الدنيا وطيباتها ولذائذها.

وتُختتم الآيتان بتعليل ما تقدم فيهما من طلب الإعراض عن هؤلاء الناس؛ ذلك أنّ الله تعالى هو الأعلم بضلال من اختار الغواية لنفسه وبهداية من ابتغى لنفسه الرشد والهدى، فهو، إذًا، الأعلم بمن يجب الإعراض عنه؛ حتى تستمر المسيرة الرسالية للنبي ﷺ في طريقها الصحيح.

ويجمل بنا، بعد هذا، أن نغنم من الآيتين المباركتين مجموعة من توجيهاتهما:

التوجيه الأول:

ينبغي للإنسان العاقل الحكيم أن يحرص كل الحرص على عدم هدر الطاقات وتضييعها بصرفها في غير محلّها المناسب، فبناءً على المعنى الأخير لطلب الإعراض (أي الإعراض عن دعوتهم إلى الحق) يكون القرآن الكريم موجّهًا رسولَ الله ﷺ إلى هذا المعنى، وهو ألّا يهدر طاقته معهم، وأن يوجهها إلى غيرهم ممن يرتجى منهم الاهتداء والانتفاع.

إنّ الحكمة تتطلب من الإنسان أن يضع جهوده ويصرف طاقاته حيث يؤمّل الحصول على نتائج إيجابية تحقق له أهدافه أو بعضها، أمّا أن يهدر ما عنده من وقت وجهد فيما لا ينفع ولا يجدي فليس سوى دليل على غياب الحكمة، وقد روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «حيث تكون الحكمة تكون خشية الله، وحيث تكون خشيته تكون رحمته»[١].

وقد ذكر الفقهاء من جملة شرائط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شرط احتمال التأثير في الطرف المقابل، ففي المواضع التي لا يتوقع المرء فيها وجود أي تأثير لأمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر لا يجب عليه أي شيء. نعم، هناك احتياط وجوبي عند سماحة السيد السيستاني بضرورة إظهار كراهة ترك المعروف أو الإتيان بالمنكر، إظهارًا قوليًا أو فعليًا، حتى مع عدم احتمال التأثير[٢].

التوجيه الثاني:

كون القرآن الكريم يطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يُعرض عن دعوة بعض الناس ويتولى دعوةَ آخرين، يجأر بأنّ الإسلام

(١) قصار الجمل ١: ١٦٠

(٢) منهاج الصالحين، السيد السيستاني، ج١، المسألة ١٢٧١.

يطالب أتباعه بألّا ينظروا إلى الناس جميعًا بمنظار واحد ويتعاملوا معهم كلهم من المنطلق نفسه، بل لا بد من التدقيق في مواصفاتهم وقابلياتهم، والتعامل، بعدئذ، مع كلٍّ بحسبه.

إنّ الناس من حولنا متفاوتون، هذه الحقيقة لا يمكن لأي عاقل أن يتنكر لها، وقد أكّدتها الروايات الشريفة حين صنّفتهم أصنافًا متفاوتة، فمن ذلك ما ورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام من قوله: «الناس في الدنيا عاملان: عامل عمل في الدنيا للدنيا، قد شغلته دنياه عن آخرته، يخشى على من يخلفه الفقر ويأمنه على نفسه، فيفني عمره في منفعة غيره، وعامل عمل في الدنيا لما بعدها، فجاءه الذي له من الدنيا بغير عمل، فأحرز الحظين معًا، وملك الدارين جميعًا، فأصبح وجيهًا عند الله، لا يسأل الله حاجة فيمنعه»[١]، وعن الإمام الصادق عليه السلام: «الناس طبقات ثلاث: طبقة منّا ونحن منهم، وطبقة يتزيّنون بنا، وطبقة يأكل بعضهم بعضًا»[٢]، وورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «الناس ضربان: بالغ لا يكتفي، وطالب لا يجد»[٣].

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٢٤٩.
(٢) نفسه ١٠: ٢٤٨.
(٣) نفسه ١٠: ٢٤٩.

يتطلب هذا التفاوت فيما بينهم، في خصائصهم وسماتهم واستعداداتهم الأصلية والمكتسبة، أن يكون هناك تفاوت أيضًا في التعامل مع كل واحد واحد منهم، من دون أن يتنافى هذا التفاوت مع كونهم جميعًا مشتركين في أصل إنسانيتهم، وكونهم إخوة في الإيمان أو ما شابه ذلك من اللحاظات الجامعة التي ليس من شأنها نفي الفروق الفردية أو إغفال السمات الشخصية المتفاوتة بين البشر.

التوجيه الثالث:

تدل الآية الكريمة الأولى على أنّ للإنسان منّا تأثيرًا مهمًا في تحقق الهداية أو الضلالة عنده، فهي تصرّح بأنه ﴿تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ﴾ فتستعمل في حقه فعلين إراديين واضحي الدلالة على كونه حرًا مختارًا لطريق الهدى أو الضلال.

صحيح أنّ الإسلام ينصّ في تعليماته على أنّ الهداية هي بيد الله تعالى وحده، لا يشاركه فيها أي مخلوق مهما بلغت رفعة درجته: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[1]، لكنّ هذا لا يعني أنّ الهداية جبرية

(١) سورة القصص، الآية: ٥٦.

وتُفرض على العبد فرضًا من حيث أراد أو لم يرد، بل إنّ للعبد وظيفة مهمة في الأخذ بالمقدمات الاختيارية التي تمهّد له السبيل وتهيّء المجال لاهتدائه إن أراد لنفسه أن يكون في عداد المهتدين فعلًا؛ لذا عبّرت الآية بقولها: ﴿تَوَلَّىٰ﴾ وقولها: ﴿وَلَمْ يُرِدْ﴾، ولهذا أيضًا وجدنا الإمام أمير المؤمنين عليًا عليه السلام يقول: «من استرشد علم، من علم اهتدى، من اهتدى نجا»[1]، فالنجاة معتمدة على الاهتداء، وهذا متوقف على العلم، ولن يصل المرء إلى العلم إلا بالاسترشاد، أي طلب الرشاد والسعي صوبه بإرادة المرء واختياره، لا أن يظل ساكنًا بلا حراك، ينتظر أن تجود عليه السماء بالهداية وتتفضل عليه بسحبه إلى طريق الاستقامة من دون أن يلوي هو على شيء!

التوجيه الرابع:

ثمة ارتباط وثيق بين صفة ترك ذكر الله والغفلة عنه وصفة أخرى هي حب الدنيا والتعلق بها؛ لذا جاءتا في الآية الأولى متعاطفتين: ﴿تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، للدلالة على أنهما متلازمتان ولا تنفصل إحداهما عن أختها، وهذا ما دلّت عليه نصوص روائية كثيرة أيضًا كما تأتي الإشارة إليها.

---

(١) ميزان الحكمة ١٠: ٣٢٨.

إنّ أساس هذا الارتباط الوارد في الآية الكريمة راجع إلى حقيقة التنافي بين حب الله سبحانه وحب الدنيا، فهذان الحبّان متضادان بشدة، وليس يصح للعاقل أن يؤمّل الجمع بينهما في قلبه؛ لذا روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حب الدنيا وحب الله لا يجتمعان في قلب أبدًا»[١].

ويتفرع عن هذا التضاد أنّ المرء منّا إذا أراد لنفسه القرب من الله تعالى وزرع حبه في القلب فإنّ عليه أن ينزع حب الدنيا من قلبه ويزهد فيها قدر إمكانه، فعن النبي ﷺ قوله: «ما عُبد الله بشيء أفضل من الزهد في الدنيا»[٢]. والزهد لا يستلزم، بالضرورة، ترك طيبات الدنيا ونعمها المباحة، فهو يرتبط بالناحية القلبية في الأساس؛ لذا قال رسول الله ﷺ: «ليس الزهد في الدنيا لبس الخشن، وأكل الجشب، ولكن الزهد في الدنيا قصر الأمل»[٣]، وقد نسب ﷺ الزهد إلى القلوب صراحةً في قوله: «حرام على قلوبكم أن تعرف حلاوة الإيمان حتى تزهد في الدنيا»[٤].

---

(١) نفسه ٢: ٢٢٨.
(٢) قصار الجمل ١: ٢٨٥.
(٣) نفسه ١: ٢٨٤.
(٤) قصار الجمل ١: ٢٨٣.

وفي الجهة المقابلة، دلّت النصوص الروائية الشريفة على أنّ تعلّق القلب بالدنيا يستلزم الغفلة عن الله تعالى وترك ذكره، مما يقود بالنتيجة إلى نسيان الآخرة وعدم خوف العقاب، فعن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: «من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه»(١)، وهو المضمون نفسه الذي سبق أن ذكره أمير المؤمنين علي عليه السلام حين قال: «من كانت الدنيا همّه، كثر في القيامة غمّه»(٢).

التوجيه الأخير:

مع أنّ الآية الأخيرة تصف هؤلاء الناس بأنّ عندهم علمًا ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾، فإنها في الوقت نفسه تعدّهم من الضالّين ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، وهذا فيه دلالة لا تخفى على أنّ هناك من العلم ما ليس يفيد - في المنظور الإلهي - هداية حقيقية، ولا يقود صاحبه في طريق الاستقامة والفوز الواقعي، بل يبقيه غارقًا في مستنقعات الضلالة والانحراف عن الصواب، ذلك هو العلم حين لا تكون له غاية سوى الدنيا ومكاسبها، ولا يتخذه صاحبه إلا

(١) ميزان الحكمة ٣: ٢٩٧.
(٢) قصار الجمل ١: ٢٠٧.

وسيلة للقوة الظاهرية والمركز والشهرة والمال، وربما يستعين به في الظلم والتسلط على الآخرين، من دون أن يفكر يومًا في تسخير علمه هذا لأجل نفع البشر وإفادة المجتمع والأمة والعالم من حوله.

إنّ العلم حين يُتخذ لغير الأهداف الإلهية السامية وتحقيق السعادة البشرية الحقيقية سيكون وبالًا على حامله، ولن يجرّ عليه سوى الخسران المبين، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «من تعلّم العلم لغير الله فليتبوأ مقعده من النار»[١]. وجاء أيضًا أنه ﷺ قال: «من طلب العلم لأربع دخل النار: ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه، أو يأخذ به من الأمراء»[٢].

(١) ميزان الحكمة ٦: ٤٧٩.
(٢) قصار الجمل ٢: ٦٠.

١٧ - التأليف بين القلوب

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾[1].

هاتان الآيتان من سورة الأنفال مترتّبتان من الناحية الدلالية على الآية التي سبقتهما وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[2]، فبعد أن بيّنت تلك الآية أنّ على رسول الله ﷺ أن يميل للصلح السلمي إن رأى الكافرين قد مالوا إليه، جاءت هاتان الآيتان

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٦٢، ٦٣.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦١.

لترتّبا على ذلك أنهم إن أرادوا أن يتخذوا من طلبهم الصلح خديعةً للتقوّي والانقضاض عليكم، فإنّ الله سيكفيك، يا رسول الله، أمرهم، فهو حسبك وكافيك ومؤيّدك بنصره وبالمؤمنين. وهو الذي ألّف بين قلوب المؤمنين - والتأليف هو التجميع - تلك الألفة التي ما كنتَ يا رسول الله لتستطيعها وحدك، ودون توفيق وعون من ربك، ولو أنفقت في سبيلها كل ما في الأرض من خيرات. هذه الألفة هي من الله وحده، وهي تجلٍّ واقعي لعزته التي يستمد منها المؤمنون عزتهم فلا ينالهم ذلّ، وتجلٍّ كذلك لحكمته التي تقتضي وضع كل شيء في موضعه الذي ينبغي أن يكون فيه، فلا يكون شأن المؤمنين والكافرين واحدًا، بل لكلٍّ شأنه المبني على الطريق الذي اختاره لنفسه وحياته.

ونتوقف، لأجل الاستفادة، مع الآيتين الشريفتين وقفات:

الوقفة الأولى:

ثمة ربط مباشر في الآيتين بين تأييد الله رسولَه بالمؤمنين من جهة، وبين زرعه سبحانه الألفةَ بين قلوبهم من جهة أخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾، فهاتان

القضيتان مرتبطتان ارتباطًا وثيقًا؛ لأنهما تصبّان في المصبّ نفسه وتحققان الهدف ذاته.

هذا يدلنا على أنّ كل الجهود والمساعي التي يمكن أن تُبذل، في أي مكان وزمان، في طريق التأليف بين قلوب المؤمنين وإيجاد المودة وترسيخ الأخوّة فيما بينهم، هي جهود تؤدي إلى نصرة رسول الله، وهذه ليست سوى نصرة للدين. وفي المقابل، فإنّ كل قول أو تصرّف يؤدي إلى زرع الفتن بين المؤمنين، وإيجاد القلاقل في أوساط أبناء الأمة الإسلامية إنما هو كسر من قناة رسول الله ﷺ وإضعاف من شأنه وتضييع لما يريده في أمته.

إنّ المؤمن لا يذوق طعم الإيمان حتى يكون رسول الله ﷺ وأهدافه السامية أهم وأحب إليه من أي شيء آخر. هكذا ورد عنه ﷺ: «ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[1].

على المسلمين جميعًا، إذًا، أن ينتبهوا إلى هذه المسؤولية

(١) كنز العمال، المتقي الهندي، الحديث ٤٣٢١٢.

العظيمة الدقيقة التي عليهم تحمّلها بدقة: أن يحرصوا على صبّ كل جهودهم وطاقاتهم في طريق الوحدة الإسلامية وجمع المسلمين وتآخيهم الحقيقي، فبهذا سيسعدون نبيّهم وينصرونه وينصرون دينه القويم. وعليهم جميعًا تقع مسؤولية تجنّب كل الأقوال والأفعال التي من شأنها التأثير سلبًا من هذه الناحية وتعريض الأمة للفتن والتفرقة والتشرذم. وإن وجدوا أنّ هناك فئات معينة، في أي طرف وقفت، تسعى إلى نشر العداوات بين المسلمين فإنّ المسؤولية تقتضي عندئذ الوقوف بوجه تلك الفئات وإيقافها عند حدّها، لئلا تقود الأمة إلى نتائج وخيمة لا يمكن بعدئذ إصلاحها أو تداركها.

الوقفة الثانية:

كون الوحدة بين المؤمنين نصرًا إلهيًا لرسوله ﷺ يقودنا إلى حقيقة أخرى عظيمة الأهمية، لكنها على أهميتها قد تقع الغفلة عنها في حالات غير قليلة. هذه الحقيقة هي أنّ الوحدة بين المسلمين ينبغي لها أن تقوم على أساس رضا الله ورسوله، وبما يحقق الإرادة الإلهية في هذا الوجود، هذا هو معنى نصر الله لرسوله، وهذه هي الوحدة المبتغاة في المنظور الديني الإلهي.

إنّ المغالطة التي يقع فيها كثيرون هي حسبانهم أنّ الوحدة مطلوبة في حد نفسها مهما كان الأساس الذي تُبنى عليه وتقوم، حتى لو كان ذلك الأساس طاعة الشيطان وعبادة هوى النفوس؛ لذا ليس غريبًا أن ترى وتسمع أناسًا يتنادون بالدعوة إلى وحدة المسلمين تحت راية الطاعة لأمريكا والولاء لإسرائيل أو من يمثّلهما في هذا العالم! وهؤلاء ينطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[١]، وقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «من يطلب العزّ بغير حق يذلّ»[٢]. ويا لها من مفارقة عظيمة ستقع فيها هذه الأمة الإسلامية إذا حاولت الوصول إلى وحدتها التي تؤمّل أن تحقق لها العزة من طريق لا يقود إلا إلى الذلّ!

الوقفة الثالثة:

لم تجعل الآيتان المباركتان الوحدة الإسلامية مقتصرة على الوحدة الخارجية في الموقف والسلوك العملي، فهذا

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤١.
(٢) ميزان الحكمة ٢: ٤٦٦.

أقل المطلوب، بل توغلت إلى الأعماق حين جعلت هذه الوحدة مرتبطة بالقلوب ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، فأعطت الوحدةَ معناها العميق الدقيق الذي يريده الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة.

إنّ المؤمن الحقيقي هو الذي يتجسد إيمانه ويتمظهر في كل كيانه وذرات وجوده، وليس القلب بمستثنى من هذا، فلا بد أن تكون كل العلاقات القلبية منبعثة من الأساس الإيماني ومبنيّة عليه، فالحب لا ينبغي أن يكون إلا لله ومن يحبه الله، وكذلك البغض لا يكون إلا لمن يبغضه الله سبحانه. هذه الحقيقة، إنْ استحضرناها، ستجعلنا نحب المؤمنين جميعًا في الله تعالى، ونبغض أعداء الله في الله، وهذا أوثق عرى الإسلام مثلما قال الرسول الأكرم ﷺ: «أوثق عرى الإسلام أن تحب في الله وتبغض في الله»[1].

وحقًا ينتاب المرءَ العجب حين يراجع الروايات الشريفة ويتأمل في الأهمية العظمى التي أعطتها قضيةَ الترابط الوثيق الذي ينبغي أن يظهر بين المنضوين جميعًا تحت مظلة الأخوّة

(١) ميزان الحكمة ٢: ٢٣٣.

الإيمانية، فمن هذه الروايات مثلًا قول الإمام الصادق عليه السلام: «لا يكون المؤمن مؤمنًا أبدًا حتى يكون لأخيه مثل الجسد، إذا ضرب عليه عرقٌ واحد تداعت له سائر عروقه»(١).

الوقفة الأخيرة:

منشأ تحقق هذه الوحدة الإسلامية إنما هو الإيمان؛ لذا ذكرت الآيتان وصف الإيمان على وجه التحديد وكون التأليف إنما كان بين قلوب المتصفين بهذا الوصف دون غيره: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾.

إنّ من شأن الإيمان الحقيقي أن يغيّر الإنسانَ فكريًا وروحيًا ونفسيًا، عندما يرفعه عن مستوى الانكباب على الحياة الدنيا وزخارفها، وهي دار التزاحم والتعارض في الرغبات والتضارب في المصالح الخاصة، ويجعله يرتبط في مستوى طموحاته الحقيقية وآماله النهائية بما بعد هذه الحياة، فيعفّ عن زخارف الدنيا ومطامعها، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الإيمان عفيف عن المحارم، عفيف عن المطامع»(٢).

---

(١) ميزان الحكمة ١: ٣٠٥.
(٢) نفسه ١: ٣٠٢.

والارتباط القلبي بالحياة الآخرة إنما هو، في واقعه، ارتباط بالنعيم المقيم الذي لا تزاحم فيه ولا تنازع، ولا زوال له ولا اضمحلال، وهذا يجعل المؤمنَ الحقيقي ينظر إلى إخوانه المؤمنين نظرةً تتلخص فيها كل رغبات الخير له، ولا تشتمل في طياتها إلا على تجليات المودة ومظاهر الأخوّة. وفي هذا المعنى وردت روايات متعددة منها، مثلًا، ما عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لا يستكمل عبدٌ الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١].

(١) ميزان الحكمة ١: ٣١٣.

١٨ - اتخاذ الدين لعبًا ولهوًا

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾(١).

تقدّم الآية المباركة للنبي الأكرم محمد ﷺ المنهج الذي يتعيّن عليه أن يتخذه في التعامل مع الكافرين المتصفين بالصفتين المذكورتين، ويتمثل هذا المنهج في الإعراض والترك، وهذا هو معنى فعل الأمر «ذر». ولنتوقف قليلًا عند الصفتين متأملين أبعادهما.

فأما الصفة الأولى فهي ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾، و«اللعب» و«اللهو» وإنْ كانا يشتركان في معنى ترك الحق،

(١) من الآية ٧٠ من سورة الأنعام.

لكنّ هناك فارقًا دقيقًا بينهما يتمثل - بناءً على ما ذكره صاحب الميزان - في أنّ «اللهو ما يلهيك ويشغلك عما يهمك، فالحياة الدنيا من اللهو لأنها تلهي الإنسان وتشغله بزينتها المزوقة الفانية عن الحياة الخالدة الباقية، واللعب فعل أو أفعال منتظمة انتظامًا خياليًا لغاية خيالية، كملاعب الصبيان، والحياة الدنيا لعب لأنها فانية سريعة البطلان كلعب الصبيان يجتمعون عليه ويتولعون به ساعةً ثم يتفرقون، وسرعان ما يتفرقون»[١]. وذهب صاحب التفسير الأمثل إلى أنّ الفارق بينهما يتمثل في كون اللعب للصغار، واللهو للكبار[٢].

ومهما يكن من أمر، فإنّ ما ينبغي أن يستوقفنا هنا هو السؤال عن كيفية اتخاذ هؤلاء الكافرين دينهم لعبًا ولهوًا. هذا السؤال المهم أجاب عنه المفسرون إجابات متعددة، أهمها:

١ - هذا الذي اتخذوه لأنفسهم دينًا - من عبادة الأصنام وغيرها - ليس سوى لعب ولهو، فهو ليس دينًا حقًا يتخذه العقلاء لأنفسهم إنْ كانوا عقلاء فعلًا.

٢ - إنهم لا يتعاملون مع قضية الدين بجدّ واهتمام، فهم

(١) الميزان في تفسير القرآن ١٦: ١٤٩، في تفسير الآية ٦٤ من سورة العنكبوت.
(٢) الأمثل ٤: ٢٣٠.

فيها لاعبون لاهون، بغض النظر عن قيمة دينهم، أيًا كان، في حد نفسه، فالنظر هنا هو إلى نوعية التعامل وليس إلى قيمة الدين كما في الإجابة السابقة.

٣ - المراد من «الدين» هنا هو الدين الحق (الإسلام)، خلافًا للجوابين السابقين، وقد أضيف إليهم (دينهم) لكونه دين الفطرة البشرية الموجودة عند كل الناس، فهذا الدين الحق لم يواجهه هؤلاء إلا باللعب واللهو، بدلًا من أن يمنحوه كل عنايتهم واهتمامهم.

وأما الصفة الأخرى في أولئك الكافرين فهي أنهم ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، بمعنى كونها قد خدعتهم، وهذه الصفة مرتبطة، في الواقع، بالصفة الأولى ارتباطًا سببيًا، بمعنى أنّ انخداعهم بالحياة الدنيا هو الذي كان سببًا في اتخاذهم الدين لعبًا ولهوًا.

وتمنحنا الآية الشريفة مِنَحًا نغنمها منها:

المنحة الأولى:

على المؤمن أن يحرص - أشدّ ما يمكن للحرص أن يكون - على أن تكون علائقه مع الناس ومواقفه منهم مبنيّةً

على الأساس الديني؛ ذلك أنّ هذه العلائق، لا سيما الوثيقة منها، لها أعظم التأثير في صفات المرء وأخلاقه وتصرفاته، وهو ما أراده الحديث النبوي الشريف المعروف: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[١].

ولمّا كان هذا كذلك، فعلى المرء أن ينتقي من الناس ذوي الدين والخلق ليخالطهم ويعاشرهم في المجتمع، فيكون تأثّره بهم تأثّرًا يعينه على السير نحو الأهداف الإلهية العليا التي تحقق للحياة الإنسانية معناها وتقودها نحو غاياتها التي وُجدت لأجلها. وفي غير هذه الصورة، إذا مال المرء إلى أصدقاء السوء وقرناء الباطل، سيوقع نفسه في نتائج وخيمة قد لا تكون متصوّرة في أول الأمر، لكنها حين تتحقق ستجعل صاحبَها يتحسر على عمره ويتذكر في حسرة قول رسول الله ﷺ: «الوحدة خير من قرين السوء»[٢].

إنّ هؤلاء الذين ليس الدين عندهم مهمًا، بل هو مجال للعبهم ولهوهم، لا بد للمرء أن يتعلم كيفية الإعراض عنهم والترك لهم، إذ لا محيص للعاقل عن تجنب كل ما من شأنه

(١) ميزان الحكمة ٥: ٢٩٧.
(٢) ميزان الحكمة ٥: ٢٩٩.

أن يشغله عن أهدافه السامية وغاياته الإلهية العليا، لا سيما مجالس أولئك الذين وصفتهم بعض النصوص الشرعية بـ «البطّالين». وبيّنت خطورة مخالطتهم، ففي دعاء للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام نقرأ:

«اللهم إني كلما قلت قد تهيأت وتعبأت وقمت للصلاة بين يديك وناجيتك، ألقيت عليّ نعاسًا إذا أنا صليت، وسلبتني مناجاتك إذا أنا ناجيت، ما لي كلما قلت قد صلحت سريرتي وقرب من مجالس التوابين مجلسي عرضت لي بليّة أزالت قدمي وحالت بيني وبين خدمتك...»[1].

هذه الحالة السيئة التي وصفها الإمام عليه السلام من الجفاف الروحي، والنقص العبادي، والانحراف السلوكي راجعة إلى أسباب عدة تناولها الدعاء وعرض لها. ما يعنينا منها في هذا المقام هو ما بيّنه الإمام بقوله وهو يتحدث عن حال أمثالنا نحن العصاة: «أو لعلك رأيتني في ألفَ مجالس البطّالين، فبيني وبينهم خلّيتني». ويكفي المرءَ أن يتأمل هذه العبارة الأخيرة مدققًا في «مجالس البطّالين»، ثم يعيد نظرًا في الحالة

(١) من الدعاء المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي، وهو من أدعية أسحار شهر رمضان المبارك.

السيئة التي تقدّم وصفها سابقًا، ليوقن بعدئذ بمدى خطورة الأثر الهدّام المخرّب الذي يمكن للمجالس الفاسدة والعلاقات السيئة أن تخلّفه في حياة الفرد والمجتمع المسلم.

المنحة الثانية:

تشير الآية المباركة، بناءً على بعض الوجوه المتقدمة في تفسيرها، إلى أنّ انحراف هؤلاء الكافرين راجع إلى كونهم لم يعطوا الدين ما يستحقه من جد واهتمام، بل تعاملوا معه من منطلق اللهو واللعب. وهذا يكشف عن حقيقة مفادها أنّ الإنسان بطبعه لا يسير في أي اتجاه ولا يعتنق أي معتقد أو فكرة إلا إذا أعطاه من نفسه الاهتمام والجد والعناية.

إنّ هذه المنحة القرآنية لتحمل رسالة لكل فرد منّا، مضمونها أنّ علينا أن نتحلى بالجدّ والاهتمام بنحوٍ كافٍ في كيفية تعاملنا مع أهدافنا، مهما كان نوعها. فلا مكان في حياة الإنسان الهادف الحقيقي لعدم المبالاة والتهاون والتسويف، بل له في كل مجال يعنيه نيّة صادقة تحرّكه، وهي أساس كل عمل، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا عمل إلا بنيّة»[1].

(١) قصار الجمل ٢: ٢٨٤.

ومتى ما وُجدت هذه النيّة فإنّ الأعمال المنويّة ستسهل، وتصبح الأهداف المرسومة متاحة النيل والتحقق، فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما ضعف بدنٌ عمّا قويت عليه النيّة»[١].

وليس ما تقدم مقصورًا على حالة تعامل الإنسان نفسه مع أهدافه، بل هو يسري إلى تعامله مع الآخرين من حوله في الحياة الاجتماعية أيضًا، فإذا أراد لأولاده أو زوجه أو موظفيه أو زملائه مثلًا أن يطبقوا فكرة معيّنة أو يسلكوا سلوكًا ما، فإنّ عليه، في البدء، أن يولّد في نفوسهم الاهتمام والرغبة بما يريده، وذلك من طريق إقناعهم وتفهيمهم بالأسباب والدواعي، فيتولد عندهم الانجذاب والحافز للتنفيذ. وهذا المسلك العقلائي من المؤسف أن نجد كثيرًا من الناس يخالفونه، لا سيما في تعاملهم مع أولادهم، فنراهم لا يتعاملون معهم إلا بالطرائق العسكرية التي تعتمد على الإلزام بالتنفيذ، دونما إفساح المجال للإقناع والتوجيه الفكري الاختياري.

(١) قصار الجمل ٢: ٢٨٤.

المنحة الأخيرة:

تشي الآية الكريمة بما للاغترار بالدنيا من آثار وخيمة خطيرة في حياة الإنسان، فهو قد يجعل المرء ينحطّ وينحدر ويتسافل إلى الدرجة التي لا يتورع فيها عن اتخاذ الدين وسيلة إلى اللعب واللهو، بدلًا من أن يكون وسيلته إلى السموّ والارتفاع والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى.

وهؤلاء الذين يتعاملون مع الدين بهذه الطريقة قد يكونون من النخبة المثقفة المفكرة، وربما من العلماء في المجتمع، فينبغي للناس أن يتلقوا منهم طروحاتهم وأفكارهم التي يروّجون لها باسم الدين، بطريقة حذرة في التلقي، لئلا يستغلوا موقعهم الديني والثقافي المميز في تمويه الحقائق وتدليسها وعرض ما تشتهيه أهواؤهم في صورة المفاهيم الدينية، فيكونون قد استغلوا الدين واتخذوه لعبًا ولهوًا. إنّ التيقّظ في الأمور الدينية كلها مطلوب، وهو في التعامل مع أمثال هؤلاء مطلوب بشدة، وهو نعمة في منظور الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام القائل: «التيقّظ في الدين نعمة على من رُزقه»[1].

(١) ميزان الحكمة ٣: ٣٧١.

وقد يكون المغترّون من عامة الناس، فهؤلاء أيضًا لهم مطامعهم وأهواؤهم التي ربما يتخذون الدين وسيلة وطريقًا لتحقيقها، فيكونون بذلك قد اتخذوا دينهم، بطريقة أو بأخرى، لعبًا ولهوًا، غافلين عن كونهم يقودون أنفسهم، بسوء اختيارهم، في طريق خسارة الدين والدنيا معًا، فعن الإمام علي عليه السلام أيضًا أنه قال: «صُن دينك بدنياك تربحهما، ولا تصن دنياك بدينك فتخسرهما»(١).

وللإمام الحسين بن علي عليه السلام كلمة مشهورة يفضح فيها موقف أولئك الذين لا يعرفون الدين إلا حين يرونه وسيلة تتحقق بها مصالحهم وأطماعهم الدنيوية، فيلهجون حينذاك بذكره، ويتسابقون إلى التعلّق به والأخذ بحُجزته. لكن موقفهم هذا يتبدّل بطريقة شبه تامة عندما يقترن التمسّك بالدين مع البلاء والمحنة. قال عليه السلام: «إنّ الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا مُحّصوا بالبلاء قلّ الديّانون»(٢).

(١) ميزان الحكمة ٣: ٣٩٢.
(٢) بحار الأنوار ٧٥: ١١٧.

١٩ - تفاضل أرزاق الناس

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾[١].

يُبرز هذا المقطع القرآني من الآية الشريفة حقيقة كونية وسُنّة إلهية من السنن الحاكمة في هذه الحياة، وهي المرتبطة بالتفضيل الإلهي لبعض الناس على بعض في الرزق، ولها مجموعة من الأبعاد المهمة التي نعرض لأهمها فيما يأتي:

البُعد الأول:

تفاوت الناس في الأرزاق هو على نوعين: تفاوتٌ ظالم وتفاوت طبيعي، فالتفاوت الأول هو الناتج من الظلم، وهو قد يكون ظلمًا من الإنسان لنفسه، بأن يتكاسل عن طلب

(١) سورة النحل، الآية: ٧١.

الرزق، ويتواكل، ولا يستفيد من طاقاته بدعوى أنّ الرزق مقدّر مقسوم، وربما يدعوه هذا إلى أن يلقي بمؤنته ومسؤولية إعاشته على الناس من حوله.

وهذه الحالة قد حذّرت الروايات الشريفة منها تحذيرًا مؤكدًا، ودعت إلى العمل والكسب الحلال وأبرزت ما في ذلك من الفضل والثواب عند الله تعالى، فمن هذه الروايات:

- الرسول ﷺ: «ملعون ملعون من ألقى كَلّه على الناس»[١].

- الرسول ﷺ أيضًا: «الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله»[٢].

- الإمام الصادق عليه السلام: «لا تدع طلب الرزق من حلّه، فإنه عون لك على دينك، واعقل راحلتك وتوكّل»[٣].

وقد يكون الظلم ظلمًا من الإنسان لغيره من الناس، بأن يستولي على حقوقهم، ويعتدي عليها فيغصبها وينهبها، مثلما يفعل كثير من الأثرياء وأصحاب رؤوس الأموال الطائلة مع

(١) قصار الجمل ١: ٢٤٩.
(٢) ميزان الحكمة ٤: ١١٩.
(٣) نفسه ٤: ١٠٦.

الفئات الفقيرة والمسحوقة في المجتمعات المختلفة، ومثلما تفعل الدول التي توصف بـ «العظمى» مع الدول الضعيفة أو المستضعفة في هذا العالم المعاصر.

وفي الروايات الشريفة تعبيرات مخيفة فعلًا في النهي عن ظلم الآخرين والتعدي على حقوقهم وفي التحذير منه، فمن ذلك مثلًا:

- الرسول ﷺ: «إياكم والظلم، فإنّ الظلم عند الله هو الظلمات يوم القيامة»[١].

- الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «الظلم في الدنيا بوار، وفي الآخرة دمار»[٢].

- وعنه عليه السلام أيضًا: «من ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده»[٣].

إنّ مما ينبغي أن يكون واضحًا أنّ هذا النوع من التفاوت في الرزق، وهو التفاوت الظالم، ليس هو الذي يعدّه القرآن الكريم سُنّة إلهية حاكمة وقانونًا كونيًا سائدًا، فالظلم بكل

(١) ميزان الحكمة ٥: ٥٩٩.
(٢) نفسه ٥: ٥٩٥.
(٣) نفسه ٥: ٥٩٦.

تجلياته مرفوض، وهو عقبة في طريق تحقيق الناس للأغراض السامية من وجودهم في الحياة، وليس يمكن أن يكون سُنّةً أرادها الله للناس.

التفاوت الذي يتحدث عنه القرآن، إذًا، وينسبه إلى الله تعالى، إنما هو التفاوت الطبيعي في الرزق، وهو الراجع إلى اختلاف البشر فيما بينهم في قابلياتهم وطاقاتهم وإمكاناتهم، ولا شك أنّ هذا الاختلاف يستتبع اختلافًا في مدى قدرتهم على تحصيل أسباب الرزق وتوفير متطلباته، مما يقود، بالنتيجة، إلى تفاوت أرزاقهم تفاوتًا طبيعيًا. وهذا هو ما أشارت إليه النصوص الشرعية حين ربطت الضمان الإلهي للرزق بطلب العبد إياه، فعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «اطلبوا الرزق، فإنه مضمون لطالبه»[1].

البعد الثاني:

قد يتساءل بعض الناس: وهل هذا التفاوت الذي وصفناه بـ «الطبيعي» تفاوت عادل ومنصف حقًا حتى يريده الله تعالى لنا؟

---

(١) ميزان الحكمة ٤: ١٠٦.

والجواب: لا شك ولا ريب إطلاقًا في عدالته؛ فلولاه لما استقامت الحياة البشرية، بل لما أمكنت أصلًا، إذا كان الناس جميعًا متحدين في كل صفاتهم وقابلياتهم، وكانوا كلهم متطابقين فيما يحبون ويكرهون ويختارون ويتركون. وهل يمكن لأحدنا أن يتصور كيف يمكن للحياة أن تمضي للأمام لو كان الناس كلهم نسخًا متطابقة، لا فارق بين أي فرد وآخر منهم؟

إنّ هذه الحقيقة هي التي جعلت الإمام عليًا أمير المؤمنين عليه السلام يربط بين الأرزاق وتنوّع البشر واختلافهم من جهة، ويعدّ كل ذلك من النعم الإلهية على البشر من جهة أخرى، إذ قال: «قسم أرزاقهم، وأحصى آثارهم وأعمالهم، وعَدَد أنفسهم، وخائنة أعينهم، وما تخفي صدورهم من الضمير، ومستقرّهم ومستودعهم من الأرحام والظهور، إلى أن تتناهى بهم الغايات»[١].

على أنّ التفاوت المشار إليه ليس معناه أن يحصل بعض الناس على كل صنوف الرزق ويُحرم بعضهم من جميعها، فالناس في قابلياتهم متفاوتون بنحو متوازن في العادة، فنرى

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٩٠، ص ١٢٣ (طبعة د. صبحي الصالح).

هذا الإنسان مثلًا متفوقًا في الجانب الجسدي، وذاك في الجانب الفكري، وذلك في الجانب الفني الأدبي. . . وهكذا، فيحصل كل منهم من الرزق طبقًا لما لديه من إمكانات واستعدادات في ذاته، ولعلّ هذا المعنى هو الذي أراده الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «إنّ الرزق لا يجرّه حرص حريص، ولا يصرفه كراهية كاره»[١].

البُعد الثالث:

إنّ استحضار الحقيقتين السالفتين (وهما كون التفاوت ضروريًا لاستمرار الحياة وبقائها، وكون الفرد منّا لا ينال إلا وفق مقتضى قابلياته) مفيد جدًا في جعل نظرة الفرد إلى ما عند غيره من الناس نظرةً صحيةً سليمة، ليس فيها ما يجعلها متوترة بنحو سلبيّ؛ ذلك أنّ الإنسان منّا كثيرًا ما تنتابه مشاعر الغيظ والحسد حينما يرى النعم الإلهية تترى على الآخرين، فيكتوي قلبه بنار الحسرة، وتغلب على فؤاده الأحاسيس الناجمة عن الحسد، فيتمنى زوال النعم عن الآخرين لينالها هو! وقد تذهب به الأهواء الشيطانية إلى ما هو أبعد شأوًا وأقصى

(١) ميزان الحكمة ٤: ١٠٧.

مدًى، فيخوض في أوحال الجريمة ويغرق في مستنقعات الانحراف، وهذا ما حذّر القرآن الكريم منه مرارًا ونبّه على خطورته على الفرد والحياة الاجتماعية:

- ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[١].
- ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٢].
- ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[٣].
- ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾[٤].

ونبّهت الأحاديث الشريفة أيضًا مرارًا وتكرارًا على خطورة الحسد، وعدّته داءً خطيرًا لا تقتصر خطورته على الحياة الدنيا وحدها، فمن ذلك ما عن رسول الله ﷺ: «إياكم والحسد، فإنّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[٥].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥٤.
(٣) سورة الفلق، الآية: ٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.
(٥) ميزان الحكمة ٢: ٤٢٦.

بيد أنّ الإنسان المؤمن بالحقيقتين المتقدمتين سابقًا ستكون حاله مختلفة؛ لأنه موقن قطعًا بأنّ التفضيل في الرزق ليس يكون بنحوٍ جزافي اعتباطي غير خاضع للضوابط، وإنما ينال كل امرئ ما تتحمله قابليته. وما أجمل التعبير الذي عبّر به أمير المؤمنين علي عليه السلام عن هذه القضية إذ قال: «فإنّ الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس بما قُسم لها من زيادة أو نقصان، فإن رأى أحدكم لأخيه غفيرة في أهل أو مال أو نفس فلا تكونن له فتنة»[1].

البُعد الأخير:

تفاوت الناس في أرزاقهم ليس محصورًا في تباين مستوياتهم من الناحية المادية وحدها؛ ذلك أنّ كلمة «الرزق» تحمل دلالة واسعة النطاق جدًا، فهي بمعنى «كل ما يُنتفع به». ومن الجليّ أنّ هذا الذي يُنتفع به قد يكون متعلقًا بالنواحي غير المادية أيضًا، كالعلم والخلق والأفكار والطباع والسمات النفسية إلخ.

معنى هذا أنّ علينا أن نتعلم كيف نتقبل الاختلاف بين

---

(١) ميزان الحكمة ٤ : ١٠٣. و«الغفيرة» هي الكثرة.

البشر في الجوانب المختلفة من شخصياتهم، فليس في الحياة اثنان يمكن أن تكون شخصيتاهما متطابقتين من النواحي كافةً، بل لا بد من التمايز والفرادة، ولو في بعض الجوانب، عند كل إنسان منّا. وهذا يقودنا إلى أن نتعامل مع كل إنسان من حولنا بحسب نوع شخصيته ومستوى قابلياته وسماته الذاتية، فبهذا يكون تعاملنا الاجتماعي موفّقًا وناجحًا. يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «النفوس أشكال، فما تشاكل منها اتفق، والناس إلى أشكالهم أميل»[١].

إنّ من أسباب كثير من المشكلات والتوترات الاجتماعية غياب هذه النظرة المتقبّلة لاختلاف الشخصيات، فترى بعض الأزواج والزوجات يطالبون شركاءهم في الحياة بأن يكونوا مماثلين لأناس آخرين يعرفونهم ويجدونهم متميزين في بعض الطباع أو الأخلاق الحسنة، دونما مراعاة لحقيقة واضحة مفادها أنّ الإنسان لا يستطيع أن يجعل من نفسه نسخة مطابقة كل التطابق لإنسان آخر، فلكل فرد خصوصياته وسماته.

وربما تجد أيضًا في أي مجتمع من المجتمعات آباءً وأمهات يريدون لكل أبنائهم وبناتهم أن يشبهوا أطفالًا يعرفهم

(١) ميزان الحكمة ٥: ٢٩٧.

المجتمع بالذكاء والفطنة والتفوق الدراسي مثلًا، تدعوهم إلى ذلك محبتهم لذراريهم ورغبتهم الملحّة في أن يروهم دائمًا في عداد المتفوقين في كل المجالات، غافلين عن وجود قابليات معيّنة لكل طفل لا يمكنه بحال من الأحوال أن يتخطاها مهما حاول.

٢٠ - العزّة الاجتماعية

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

تنقل الآية الكريمة نص مقولة قالها رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول وقت رجوع جيش المسلمين من غزوة بني المصطلق، والروايات الواردة في هذه الحادثة متعددة ومتفاوتة في بعض تفصيلاتها الجزئية، فمنها مثلًا ما عن قتادة: «قد قالها منافق عظيم النفاق في رجلين اقتتلا، أحدهما غفاريّ والآخر جهنيّ، فظهر الغفاري على الجهني، وكان بين جهينة وبين الأنصار حلف، فقال رجل من المنافقين وهو عبد الله بن

(١) سورة المنافقون، الآية: ٨.

أبيّ: يا بني الأوس والخزرج، عليكم صاحبكم وحليفكم. ثم قال: والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمّن كلبك يأكلك، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ. فسعى بها بعضهم إلى نبي الله ﷺ فقال عمر: يا نبي الله، مر معاذًا أن يضرب عنق هذا المنافق، فقال: لا يتحدث الناس أنّ محمدًا يقتل أصحابه»[١].

هذا المنافق، إذًا، كان يرى وفق مقاييسه المادية الضيقة أنه وجماعته من المنافقين أعز من رسول الله ﷺ وصحبه المؤمنين؛ لذا أخذ يتوعد بأنّ الأعزّ سيخرج الأذلّ من المدينة، لكنّ القرآن الكريم ردّ عليه بأنّ العزة - بالمقياس الحقيقي الإلهي - إنما هي لله ولرسوله وللمؤمنين، والمنافقون جاهلون يتخرصون بما لا يعلمون.

وغنيّ عن البيان أنّ التعبير الوارد في الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا يتنافى مع ما في بعض الآيات الأخرى من حصر للعزة في الله وحده، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٢]، وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[٣]،

(١) الدر المنثور، السيوطي، ٦: ٣٣٨.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٩.
(٣) سورة فاطر، الآية: ١٠.

لأنّ المقصود من هذا الحصر إنما هو العزة بالأصالة، فالعزيز بالأصالة الذي لم يكتسب عزته من أحد غيره هو الله سبحانه وحده، وهذا لا يتنافى مع وجود من استمد عزته منه تعالى، فالرسول والمؤمنون عزتهم هي من عزة الله (جل وعلا) وليست مستقلة عنه.

هذا، وفي الآية المباركة جوانب مهمة نعرض لها فيما يأتي:

الجانب الأول:

تستثير الآية أمامنا حقيقةَ كونِ الرضا بفعلٍ ما يعني المشاركة فيه، فقائل المقولة التي نقلتها الآية هو شخص واحد فحسب، ومع هذا عبّرت الآية بالفعل المسند إلى واو الجماعة «يقولون». وما ذلك إلا لأنها عدّت رضا المنافقين الآخرين بمقولة رئيسهم بمنزلة المشاركة معه فيما قال، فكأنهم جميعًا قد قالوا.

إنّ هذه الحقيقة لسُنّة إلهية في الكون، وقد تكررت لها أمثلة متعددة في التاريخ البشري الطويل، وأشار الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى واحد من أمثلتها حين تحدث عن عاقر ناقة ثمود: «أيها الناس، إنما يجمع الناسَ الرضا

والسخط، وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمّهم الله بالعذاب لمّا عمّوه بالرضا»[١]. وقال عليه السلام أيضًا في كلمة له أخرى: «من استحسن قبيحًا كان شريكًا فيه»[٢].

حقًا هي، إذًا، مسؤولية دقيقة وحساسة على كل إنسان منّا أن يكون منها على ذُكر وانتباه، فليست الشراكة في أعمال الآخرين موقوفة على أن يشترك في الإتيان بها وإنجازها خارجًا. بل يكفي أن يحبها ويرضى عنها حتى يكون بذلك قد شاركهم فيها، مهما كان نوعها. ورد أنّ الإمام عليًا عليه السلام «لمّا أظفره الله بأصحاب الجمل، وقد قال له بعض أصحابه: وددت أنّ أخي فلانًا كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك، فقال له عليه السلام: أَهَوى أخيك معنا؟ فقال: نعم، قال: قد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء، سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان»[٣].

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠١، ص ٣١٩ (طبعة صبحي الصالح).
(٢) ميزان الحكمة ٦: ٢٧٠.
(٣) نهج البلاغة، الخطبة ٨، ص ٣٦ (طبعة الشيخ محمد عبده).

الجانب الثاني:

يمكن للمرء أن يجد في كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية، على تنوّعها واختلافها، نماذج لأناس يحاولون أن يخفوا عن الناس حقائقهم الواقعية، ويظهروا أمامهم بالمظهر الذي يحفظ لهم عندهم شأنهم الاجتماعي وكرامتهم ومقامهم، وصولًا إلى الأهداف التي يبتغون الوصول إليها، وقد قالت العرب قديمًا: «ترى الفتيان كالنخل، وما يدريك ما الدخل؟»[١]

بيد أنّ هؤلاء ليس في وسعهم أن يُبقوا حقائقَهم طي الكتمان إلى الأبد، إذ سرعان ما تفضحهم الشدائد والمحن وتُظهر على الملأ كل ما أرادوه أن يظل سرًا مكتومًا. المنافقون مثال واضح في تاريخنا الإسلامي على هذا، فهم قد أظهروا الإيمان وأسرّوا الكفر حين رأوا الإسلام عزيزًا قويًا في المدينة المنورة، لكن الشدائد كانت كفيلة بكشفهم وفضح أمرهم، كما في مورد نزول هذه الآية الشريفة حين انجرّ عبد الله بن أبيّ إلى التفوّه بما نقلته الآية تحت وطأة الظروف الصعبة للواقع المعيش آنذاك.

(١) مجمع الأمثال، الميداني ١: ٩١.

وعلى هذا، ثمة قضيتان يجدر الانتباه إليهما:

الأولى: هي أنّ على المؤمنين أنْ يكونوا حذرين من انطلاء خداع الناس من ذوي الوجهين عليهم، فهم موجودون في كل مجتمع كما أسلفنا، ولهم أهدافهم المبطنة التي ينبغي الحذر منها، وأية غفلة عنهم وعن أهدافهم المشؤومة ستقود المجتمع المؤمن إلى الخسران المبين.

والأخرى: هي ضرورة استفادة المؤمنين من التجارب الشديدة والشاقة التي يمرّون بها في سبيل الكشف عن حقائق هؤلاء المخادعين؛ لأنّ هؤلاء يميلون عادةً إلى الدعة والراحة، ولا يحبون أن يتعرضوا لأية حالة تربك أوضاعهم المستقرة الهانئة، فإذا انتابتهم شدة أو مشقة كشفت حقائقهم وأظهرت مكنونهم، وقد قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذا: «في تقلّب الأحوال علم جواهر الرجال»[1].

الجانب الثالث:

تعلّمنا الآية الكريمة أنّ العزة الحقة إنما تكون بالارتباط بالله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. فالعزة كما قال الراغب الأصفهاني في تعريفها هي «حالة مانعة للإنسان من أن

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٢١٤.

يُغلب، من قولهم: أرض عَزاز أي صُلبة»[١]، وهذه الحالة يريدها كل إنسان وكل مجتمع لنفسه، لكنّ الناس يخطئون الطريق حينما يتوهمون أنّ العزة تكمن في الأسباب الظاهرية كالأسلحة والعتاد وقوة الاقتصاد وكثرة الموارد المالية والبشرية مثلًا، غافلين عن ضرورة الارتباط أولًا بمسبب الأسباب، الذي تخضع كل الأسباب الظاهرية لمشيئته وإذنه.

لقد دلّت النصوص الروائية، كما القرآنية، على أنّ العزة تكمن في تقوى الله سبحانه واللجوء إلى كهفه الحصين، وفي غير هذه الصورة لن يجد الباحث عن العزة من الطرق المتوهمة الأخرى إلا الذلة والخسران والهلاك. وهذه أمثلة من تلك النصوص الروائية:

- الرسول ﷺ: «من أراد أن يكون أعز الناس فليتّقِ الله عز وجل»[٢].

- الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «من اعتز بغير الله أهلكه العز»[٣].

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن، مادة «عزز».
(٢) ميزان الحكمة ٦: ٢٩١.
(٣) نفسه ٦: ٢٨٩.

- الإمام جعفر الصادق عليه السلام : «العزيز بغير الله ذليل»[١].

الجانب الأخير:

ربطُ الآية الكريمة للعزة بالمؤمنين ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يفيد أنّ على المؤمن ألّا يقبل بالذل إطلاقًا؛ ذلك أنّ عزته هي من عزة الله ورسوله، وبما أنه ليس يمكن لهما إلا أن يكونا عزيزين فكذلك المؤمن لا يصح أن يوقع نفسه في الذل، وليس مقبولًا منه أن يرضى به لنفسه، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام : «إنّ الله تبارك وتعالى فوّض إلى المؤمن أموره كلها، ولم يفوّض إليه أن يذلّ نفسه»[٢].

وقد روى المفضل بن عمر أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه». فسأله المفضل: «بم يذل نفسه؟» فأجاب عليه السلام : «يدخل فيما يعتذر منه»[٣]. وهذه الرواية ليس المراد منها أنّ على المؤمن ألّا يعتذر إلى أخيه أو غيره من الناس إذا أخطأ في حقه أو أساء إليه، بحجة أنّ

(١) ميزان الحكمة ٦: ٢٨٩.
(٢) الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٢٨٧.
(٣) نفسه.

الاعتذار ذلّ، والمؤمن لا يرضى لنفسه بالذل! بل المراد منها أنّ على المؤمن أن يسعى غاية جهده إلى ألّا يخطئ في حق أحد من الأساس، فيعامل كل الناس من حوله بالحسنى والمعروف والأخلاق الرفيعة السامية، ولا يضيّع حقوقهم ولا يسيء إلى أيّ منهم، فلا تكون ثمة حاجة تدعوه إلى الاعتذار وطلب الصفح منهم، وبذا يحفظ لنفسه العزة كما ينبغي لها أن تُحفظ.

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

١ - قول الأحسن ٧
٢ - الدفع بالأحسن ١٩
٣ - حب شيوع الفاحشة ٢٨
٤ - الأكثرية والضلال ٣٨
٥ - تولّي الصالحين ٤٨
٦ - العفو والعرف والإعراض ٥٨
٧ - عداوة الأزواج والأولاد ٦٩
٨ - الآيات في مقابل الماديات ٧٩
٩ - زيادة الإيمان بالتخويف ٨٨
١٠ - وسائل لصرف الآخرين عن الحق ١٠٠

١١ - هدى الأنفس وضلال الآخرين ١١١
١٢ - الأيتام والظلم ١٢٢
١٣ - الامتحان الاجتماعي ١٣٠
١٤ - من آداب العطاء الاجتماعي ١٤٠
١٥ - الوحدة الإسلامية وملامحها ١٥٠
١٦ - الإعراض الرسالي ١٦١
١٧ - التأليف بين القلوب ١٧١
١٨ - اتخاذ الدين لعبًا ولهوًا ١٧٩
١٩ - تفاضل أرزاق الناس ١٨٨
٢٠ - العزّة الاجتماعية ١٩٨

IslamicMobility.com

In the age of Information
Ignorance is a choice

"Wisdom is the lost property of the Believer,

let him claim it wherever he finds it"

Imam Ali (as)